



في رحاب نوابغ العلماء

الشيخ الأنصاري

رائد النهضة العلمية الحديثة

العلامة المحقق
آية الله جعفر السبحاني



مكتبة نرجس PDF

www.narjes-library.blogspot.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعتز الأمم - جميع الأمم - بالعظماء من علمائها ومفكرها وقادتها، الذين كرسوا حياتهم للنهوض بالأمة في ميادين العلم والعمل والكفاح والجهاد، تلبية لدواعي الوفاء لهم، وتثميناً لجهودهم، وتعريفاً بمقامهم ومكانتهم، واستلهاماً لعطائهم الثرى.

وتحقيقاً لهذه الأغراض، آثرنا القيام بتأليف سلسلة (في رحاب نوابغ العلماء)، نلقي فيها الأضواء على جوانب مهمة من سيرة علمائنا الأفاضل، ونعرض لأهم آرائهم وأفكارهم ونتائجاتهم المتميزة.

ونحن إذ ننشر هذه السلسلة، لا نستهدف من ورائها دعوة الشباب إلى أن يكون عظامياً، يفخر فقط بما أنجزه الماضون من علمائنا الأبرار، وينأى بنفسه عن بناء حاضر مشرق زاخر بالحسوبة والنشاط، وإلّاها هي دعوة إلى التواصل مع التراث الحي، الذي يبعث الجيل الحاضر على الفخر والاعتزاز لشعوره بأن ثقافته أمته وحضارتها ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، ثم هو - الجيل الحاضر - يحاول

الإفادة منه، وتطويره بما ينسجم ومتطلبات العصر، وتطلعات الشباب
المتوقِّب للتقدم والنهوض لخدمة إسلامه العزيز وأُمَّته العظيمة.

وهنا نحن نقفُّم إلى القراء الأعزاء نماذج من حياة لفيف من
علمائنا وقادتنا، لتكون نبراساً يستهدون به في مسيرتهم نحو الخير
والكمال. والله المستد.

المؤلف



مركز تحقيقات كميّة وعلوم إسلاميّة

الشيخ الأنصاري

رائد النهضة العلمية الحديثة

ارتحل النبي ﷺ وقد خَلَفَ في أُمَّته الثقلين والوديعتين العظيمنتين، وهما الكتاب والعِترَةُ، وأمر بالتمسُّكَ بهما إلى يوم القيامة، وقال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابُ اللَّهِ وَعِترَتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمَا بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا».

ولقد بلغ إيصاء الرسول ﷺ بالكتاب وأهل بيته ﷺ من الاستفاضة بل التواتر بين الأمة مبلغاً لا ينكره إلا مكابرٌ للحقيقة، ومعانِدٌ للحقِّ، والحديث يعرب عن حقيقة ناصعة، وهي أَنَّ الملجأ للأُمة الإسلامية في حلِّ المشاكل والمعضلات، بعد النبي ﷺ هو الكتاب والعِترَةُ.

وقد قامت العِترَةُ الطاهرة في الظروف التي أُتيح لها الإجهار بالحقيقة، بتفسير الكتاب الكريم، وبيان فرائضه ومندوباته، وتبيين مشابيه ومعضلاته، كما قامت بنشر سنة النبي ﷺ، كُلُّ ذلك عند سنوح الفرص.

لقد تعلقّت مشيئة الله النافذة بانثاق أنوار الهداية من هذه البيوت الرفيعة^(١) في هذه الظروف القاسية، حتى تخرج من جامعتهم العديد من المحدثين والفقهاء ممن بلغوا الذروة والقمة في علم الشريعة وفهم الكتاب، وقد سُجِّلَت أسماؤهم وحياتهم في معاجم الرجال وكتب التاريخ، كيف وقد أدرك الحسن بن عليّ بن زياد الرشاء الكوفي من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام في عصر واحد (٩٠١) رجل في مسجد الكوفة كلّهم يقولون: حدّثني جعفر بن محمد^(٢) وقد أحصى الشيخ أبو العباس بن عقدة (المتوفى ٣٣٣هـ) الثقات من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام فبلغوا أربعة آلاف^(٣).

وقد قامت الشيعة الإمامية في تلك العصور بتدوين كلّ ما أثير عن النبي صلى الله عليه وآله عن طريق الصحابة العدول والتابعين الثقات في كتب الحديث، كما قاموا بتسجيل أحاديث العترة في مجالي العقيدة والعمل وبذلك قدّموا إلى الأمة الإسلامية خدمة جليلة، مشكورة، كيف لا، وقد قاموا بذلك في عصر عُدَّت فيه كتابة الحديث عملاً إجرامياً يُعاقب عليه فاعله، وكانت كتب الحديث تُحرق على رؤوس الأشهاد^(٤). ولقد

١. اقرأ تفسير قوله سبحانه: ﴿فَإِن يَبُوتْ إِذْنُ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ...﴾ (النور: ٣٦)، في الدر المنثور للمحقق جلال الدين السيوطي.

٢. رجال النجاشي ترجمة الحسن الرشاء، رقم: ٨٠، وقد لقي الرضا عليه السلام في خراسان، فيكون ولاته بعد المائتين من الهجرة.

٣. الإرشاد للمفيد: ١٢٨٩ رجال النجاشي رقم ٢٣٣.

٤. تقييد العلم، للمخطيب البغدادي: ٥٢.

اهتموا بتسجيل أحاديث العترة بإبصار من النبي ﷺ ولكون أقوالهم وأفعالهم برمتها حاكية عن قول الرسول وفعله، فهم لا يقولون إلا بما قاله الرسول ﷺ ولا يصدرون إلا عما صدر عنه.

وقد روى سماعة عن الإمام الطاهر موسى الكاظم عليه السلام قال: قلت له: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه أو تقولون فيه؟^(١) قال: «بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه».^(٢)

فجامعة العترة الطاهرة هي جامعة الكتاب العزيز والسنة النبوية، فهم ورث الكتاب^(٣) فلا يُحتج به في مجال الفقه والأحكام إلا بعد الرجوع إلى أحاديثهم، إذ عندهم مخصص الكتاب ومقيدته، كما هم ترجمان السنة وحزنتها، ولأجل ذلك جعلهم الرسول قرناء الكتاب وأعداله، وأسباباً للهداية، والصيانة عن الضلالة والغواية.

ولم يكن عمل الشيعة في مجال ضبط الحديث وتقييد العلم، إلا إقتداءً بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنه صلوات الله عليه قام بضبط ما أملى عليه رسول الله ﷺ من الأحكام الكثيرة وتبعه في ذلك أصحابه وتلاميذه وشيعته، وهذا «أبو رافع» خازن الإمام الأمير عليه السلام صنف كتاب السنن والأحكام، والقضايا، وهذا علي ابن أبي رافع كاتب الإمام

١. أي تقولون فيه بقولكم.

٢. الكافي: ١/ ٦٦، الحديث ١.

٣. لاحظ تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢).

عليه السلام صنف كتباً في فنون من الفقه. (١)

ولقد استمرّ تقييد العلم وضبط الحديث بين الشيعة من حياة الرسول إلى غيبة الإمام الثاني عشر فألّفوا في الحديث، جوامع كبرى معروفة عندهم بالجوامع الأوليّة، ثمّ تلتهم طائفة أخرى بعد الغيبة فألّفوا الجوامع الثانويّة المعروفة بالكتب الأربعة، وبذلك حازت الشيعة نصيب السبق في مضمار تدوين الحديث الشريف، - كما - وقدّموا بذلك إلى الأجيال المتلاحقة خدمة جليلة، وحفظوا سنة الرسول من الاندثار والزوال، وامتلأوا قول صادقهم: «احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها». (٢)

مركز تحقيقات كبير علوم ديني

الاجتهاد في عصر الباقرين عليه السلام

لم يكن الهدف من تخريج الأحاديث وضبطها وتسجيلها في الجوامع، هو نقلها بحرفيتها فقط، من دون إمعان ودقّة في الأصول الكلّيّة المتلقاة من الأئمة، بل كان الرواة بين راوٍ حافظٍ لمثل الحديث وسنده، وراوٍ واعٍ يرُدُّ الفروع إلى الأصول المرويّة ويُفتي الناس بما فهم من كلامهم وأحاديثهم عليه السلام امتثالاً لقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنما علينا أن نُلقي إليكم الأصول وعليكم أن تُقرعوا». (٣)

١. رجال النجاشي، برقم ١ و ٢.

٢. الكافي: ١/ ٥٢، الحديث ١٠. وبهذا المضمون أحاديث أخرى فراجع.

٣. وسائل الشيعة ١٨: ٤٠، الحديث ٥١ من الباب السادس من أبواب صفات القاضي.

وقال الإمام الرضا (عليه السلام): «علينا إلقاء الأصول وعليكم التفريع»^(١).

وليس التفريع إلا استخراج الفروع من الأصول الكلية وتطبيق الكبريات على الصغريات، ولا يعنى من الاجتهاد إلا هذا.

وهذه الروايات وأضرابها - التي لو أراد الباحث أن يجمعها لكلفه ذلك تأليف رسالة مفردة في ذلك المجال - تعرب عن وجود عملية الاجتهاد والإفتاء في عصر الباقرين وبعده لو لم نقل بوجودها قبله. كيف لا وقد قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) مخاطباً أبا ن بن تغلب: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فلاني أحب أن يرى في شيعتي مثلك». وقد توفي «أبان»^(٢) في سنة ١٤١ هـ قبل وفاة الإمام الصادق (عليه السلام) بسبع سنين. كان الأئمة (عليهم السلام) يقومون بدور تعليم كيفية التفريع على الأصول واستخراج الأحكام من الكتاب والسنة لأصحابهم، فهذا هو الإمام الباقر (عليه السلام) يُجيب «زرارة» بعدما سأله بقوله: «من أين علمت أن المسح ببعض الرأس؟»، بقوله - بعد كلام طويل - : «لما كان الباء في قوله سبحانه: ﴿وَأَسْحَوْا بِرءُوسِكُمْ﴾»^(٣).

و هذا هو عبد الأعلى مولى آل سام سأل الإمام الصادق (عليه السلام)

١. وسائل الشيعة ١٨: ٤٠، الحديث ٥٢ من الباب السادس من أبواب صفات القاضي.

٢. رجال النجاشي برقم ٧.

٣. وسائل الشيعة ١: ٢٩٠، الباب ٢٣ من أبواب الوضوء، الحديث ١. والآية ٦ من سورة المائدة.

وقال: عثرت فأنقطع ظفري وجعلت على إصبعي مرارة فكيف أصنع بالوضوء، قال: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١)، امسح عليها.^(٢)

إلى غير ذلك من الأحاديث العديدة التي قام الأئمة عليهم السلام فيها بتعليم خريجي مدرستهم طريقة الاجتهاد، وكيفية الاستدلال واستنباط الأصول من الفروع، ولم يكن موقفهم في هذا المقام إلا موقف المعلم المرشد الذي يقوم بوظيفة إرشاد المتعلم إلى دلائل المطلب وبراهينه وقد جمعنا قسماً من هذه الأحاديث في موسوعتنا القرآنية عند البحث عن الخاتمة.^(٣)

وعلى ضوء هذا، فالاجتهاد بمعناه الواسع هو: إعمال الدقة والنظر في الروايات، وترجيح بعضها على بعض، كان موجوداً ومعمولاً به في عصر الأئمة عليهم السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. نعم كلما تبعّد العهد عن زمن الرسالة وتكثرت الآراء والأحاديث والروايات، ودخل فيها الدس والوضع، وتوفرت دواعي الكذب فيها، أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي يصعب ويحتاج إلى مزيد من المؤونة، واستفراغ الوسع، ولأجل ذلك ترى بوناً شاسعاً بين الاجتهاد الرائج في عصر الأئمة من بعد الغيبة بقرن أو قرنين، والاجتهاد الرائج في هذه الأعصار، والجيلان

١. الحج: ٧٨.

٢. وسائل الشيعة: ١/ ٣٢٧، الباب ٣٩ من أبواب الوضوء، الحديث ٥.

٣. مفاهيم القرآن: ٣/ ٣٠٦-٣١٠.

يشاركان في بذل الجهد في استنباط الأحكام عن أدلتها الشرعية، ويفترقان في أن الاجتهاد بعد عصر الرسالة إلى قرون، كان خفيف المؤونة لقرب العهد وتوفر القرائن، والاستغناء عنه في كثير من الموارد، لإمكان السؤال المفيد للعلم، بخلافه في العصور المتأخرة حيث اتخذ الاجتهاد - لأجل بُعد العهد - لنفسه صفة فنية فلا يمكن أن يقوم به إلا الأملش فالأمثل من الرواعين المتدبرين في الكتاب والسنة، حتى لا يعمل بالعام في مكان الخاص. ولا بالمطلق عند وجود المقتد، ولا بالأصل العملي عند وجود الدليل الاجتهادي، ولا بالدليل المرجوح عند وجود المراجع، إلى غير ذلك من الخصوصيات التي فرضها بُعدنا عن عهد المعصومين.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاجتهاد ليس من البدع المحدثّة، فقد كان بسابه مفتوحاً على مصراعيه في وجه العلماء منذ زمن قديم.

الاجتهاد رمز خلود الدين

إن التشريع الإسلامي تشريع خالد، وقد أغنى البشر عن كفاة التشريعات غير الإلهية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كلما تكاملت نواحي الحضارة، وتشابكت وتعقدت ألوانها، وواجه المجتمع أوضاعاً جديدة وقضايا مستحدثة، وطُرحت عليه مشاكل طارئة لا عهد للأزمنة السابقة بها؛ ازدادت حاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة ولم تنزل تتزايد هذه الحاجة يوماً بعد يوم تبعاً لذلك.

فما هو العلاج؟ وكيف يجمع بين هذين الأمرين الثابتين؟ أيصح لمسلم، الخضوع لتشريعات بشرية لا تمت إلى تشريع السماء بصلة؟ أو أنه لا مناص له من بذل الجهود في فهم الكتاب والسنة حتى يقف على حكم هذه القضايا المستجدة من هذين المصدرين الإسلاميين المهمين، كيف لا، وقد أخبر سبحانه عن اكتمال الدين عندما قرب عهد لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.^(١)

إن خلود التشريع وبقائه في جميع الأجيال، واستغناءه عن كل تشريع سواه، يشوقف على أن يكون التشريع ذا مادة حيوية خلقة للتفاصيل، بحيث يقدر معها علماء الأمة على مواكبة الزمن باستنباط كل حكم يحتاج إليه المجتمع الإسلامي في جميع الأعصار. ولأجل ذلك يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً ليتسنى للحاكم الإسلامي الوقوف على حكم الموضوعات الحديثة بذلك فيحفظ للمدين طراوته، ويصونه عن الاندراس، وبالتالي يُغني المسلمين عن التطفل على موائد الأجانب بإعطاء كل موضوع ما يقتضيه من حكم، ولا أظن أن أحداً يشك في لزوم الاجتهاد في أصل المذهب وانفتاحه في جميع الأعصار إذا ما فتح عينيه على كثير من الموضوعات التي طُرحت - اليوم - على صعيد التشريع ولم تزل تُطرح وليس في النصوص ما يدل على حكمها

بالخصوص.

ومن المؤسف جداً أنه استحوذ الشك في لزوم دوام انفتاحه على عقول كثير من فقهاء السنة، فأقفلوا هذا الباب بكلام مصراعيه في أواسط القرن السابع^(١)، ثم واجهوا مشاكل في جميع الأعصار لا سيّما العصر الحديث.

وأما نحن معاشر الشيعة فنعتزّ على دوام انفتاحه، استلهاماً من قول الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه حماد: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة»^(٢).

ومن الواضح أنّ استخراج حكم كل شيء من ذينك المصدرين يحتاج إلى بذل جهدٍ وسعيٍ حيث في التفريع والتطبيق على ما هو دأب المجتهد.

المراحل التي مرّ بها الفقه الشيعي

ولقد مرّ الفقه الشيعي بمراحل عديدة تعدّ كلّ مرحلة تطوّراً لما قبلها.

١. الإفتاء بنقل الروايات مع أسنادها

كان الرائج في عصر الأئمة نقل الروايات بأسنادها في كتبهم

١. الخطط المقرّرة: ٢/ ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤.

٢. الكافي: ١/ ٥٩.

والإفتاء بها، فكانوا يدونون الأحاديث في أبواب خاصة كالطهارة والصلاة والزكاة والحج إلى آخر أبواب الفقه، ولم يكن المقصود من نقلها بأساندها هو تسجيل الروايات فقط، بل كان المؤلفون يراو لها وجامع للأحاديث، وواع لها مراعي لضوابط الفتيا، فالفقهاء من خريجي جامعة الإمام الباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام كانوا يسجلون الأحاديث على النمط الثاني بينما كانت الطبقة الوسطى أو الأدنى منهم يدونونها على حسب النمط الأول.



٢. تجريد المتن عن الأسانيد

وفي أوائل القرن الرابع ظهر لونٌ جديدٌ في الفتيا وهو تجريد الروايات عن أسانيدها، وكتابة الفقه بنفس النصوص الواردة فيها، ولعل أول من بادر إلى ذلك هو والد الصدوق علي بن بابويه (المتوفى ٣٢٩هـ)، فألف كتاب الشرائع على هذا النمط، كما كتب ولده الصدوق (المتوفى ٣٨١هـ) «المقنع والهداية» على غرار كتاب الشرائع للوالد. ثم استمر التأليف على هذا النحو إلى أواسط القرن الخامس فألف الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣هـ) «المقنعة»، وتلميذه شيخ الطائفة الطوسي (المتوفى ٤٦٠هـ) «النهاية» على غرار ما كتب الصدوق، وكان سيدنا الأستاذ آية الله البروجردي (المتوفى ١٣٨٠هـ) يطلق على هذا النوع من الكتب بـ«المسائل المتلقاة من الأئمة»، وإن شئت فسمه بالفقه المنصوص.

ولما لم يكن هذا النوع من الكتابة رافعاً للحاجة وساداً للفراغ لطروء مسائل مستحدثة وموضوعات جديدة لم ترد فيها سنة بالخصوص استدعى الحال إلى ظهور نمط آخر يختلف عن سابقه.

٣. مرحلة التفريع واستخراج الفروع من الأصول

وقد قام في أوائل القرن الرابع لفيف من فقهاء الشيعة بإبداع منهج ثالث وهو الخروج عن حدود النصوص، وعرض المسائل على القواعد الكلية الواردة في الكتاب والسنة. وقد اشتهر^(١) أنّ أول من فتح هذا الباب في وجه الشيعة هو «الحسن بن علي بن أبي عقيل» المعاصر للنكيني (المتوفى ٣٢٩هـ) ويظهر من النجاشي في ترجمته أنّ كتابه «التمسك بحبل آل الرسول» كان مرجعاً فقهياً للشيعة يعمل به الناس كعملهم بالرسائل العملية في يومنا الحاضر. يقول النجاشي في حقّ هذا الكتاب: «ما ورد الحاج من خراسان إلّا طلب واشترى منه نسخاً».^(٢)

ثم اقتدى به: محمد بن أحمد بن جنيد (المتوفى ٣٨١هـ) فألف كتابين في هذا المضمار «تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة» وكتاب «الأحمدي للفقّه المحمّدي»^(٣). وقد أثم ابن جنيد باستعمال القياس

١. بل تقدّم عليه لفيف من الأصحاب منهم فضل بن شاذان (ت ٢٦٠) لاحظ كتابه: الايضاح.

٢. رجال النجاشي، رقم ١١٠.

٣. رجال النجاشي، رقم ١٠٤٧.

غفلة عن حقيقة الحال، فإنه لم يستعمل القياس إلا على وجه الحاجة على الخصم ولم يكن ذلك اعتقاده ومنهجه.^(١)

غير أن عمل الفقهاء الجليلين، وإن كان مشكوراً وجديراً بالاهتمام في تلك الظروف، ولكن لرسوخ التعبد بالنصوص في أذهان كثير من الأصحاب، لم يؤثر تأثيراً كبيراً في العملية الفقهية إلى أن قام شيخ الطائفة بتأليف كتاب «المبسوط»؛ فأزاح المراقيل الماثلة أمام هذا النوع من التأليف إلى درجة أنه نسخ به النمط الآخر، وأقبل الفقهاء على كتابة الفقه على نحو تفريع الفروع واستنباط أحكامها من الأصول من دون الالتزام بنفس النصوص، ويظهر مما ذكره الشيخ في المقدمة، أنه رد بذلك على تعبير قوم من المخالفين على فقه الشيعة بأنه غير كاف لرفع الحاجة في مختلف المجالات لإعراضهم عن القواعد الرائجة عندهم، كالقياس والاستحسان وسد الذرائع إلى غير ذلك من الأصول التي رفضتها الشيعة، فأثبت الشيخ بمشروعه الكبير هذا، أن الأصول والقواعد الفقهية الموروثة عن أئمة أهل البيت كافية للإجابة عن كافة التساؤلات، يقول:

«فلاني لا أزال أسمع معاصر مخالفينا من المتفقهة والمتسبين إلى علم الفروع، يستحقرون فقه أصحابنا الإمامية وينسبونهم إلى قلّة الفروع، وقلّة المسائل، ويقولون: إن من ينفي القياس والاجتهاد لا

١. حدة الأصول: ١/ ٣٣٩، ولاحظ ما حققه السيد بحر العلوم في فوائده ٣: ٢١٣-٢١٥.

طريق له إلى كثرة المسائل ولا التفريع على الأصول، وهذا جهلٌ منهم بمذاهبنا، وقلة تأمل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا، لعلموا أن جل ما ذكروه من المسائل موجودٌ في أخبارنا ومنصوص عليه تلويحاً عن أئمتنا، إما خصوصاً أو عموماً أو تصريحاً أو تلويحاً، ثم قال: وكنت على قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك، تنوق نفسي إليه فيقطعني عن ذلك، القواطع، وتشغلني الشواغل، وتضعف نيتي أيضاً فيه قلة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتهم به، لأنهم ألقوا الأخبار وما رووها من صريح الألفاظ حتى أن مسألة لو غُيِّرَ لفظها وغيّر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم، لعجبوا منها، وقصُرَ فهمهم عنها، وكنت عملت على قديم الوقت كتاب «النهاية» وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنفاتهم بأصولها من المسائل وفرقوها في كتبهم ورتبته ترتيب الفقه، وجمعت من النظائر، ورتبت فيه الكتب على ما رُتبت للعلّة التي بيّنتها هناك، ولم أتعرض للتفريع على المسائل ولا لتعقيد الأبواب وترتيب المسائل وتعليقها والجمع بين نظائرها، بل أوردت جميع ذلك أو أكثره بالألفاظ المنقولة حتى لا يستوحشوا من ذلك»^(١).

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في أوساط العلماء، وهو أحد الكتب النفيسة للشيعة الإمامية في الفقه، وطبع في ثمانية أجزاء وصار عمله هذا بداية خير للفقهاء العظام بعده، فقد ألف زميله عبد العزيز

بن البراج (المتوفى ٤٨١هـ) «المهذب» على غراره، ثم تتابع التأليف بعدهما إلى عصرنا هذا.

ومن ألم بتاريخ الفقه الشيعي من عصر الأئمة إلى القرن العاشر يجد أن علماء الشيعة كانوا مبالين إلى أحد المنهجين التاليين:

«منهج جمع الحديث الفقهي وضبطه ونقله ونشره، ومنهج تفريع الفروع واستنباط الأحكام عن أدلتها الشرعية ولكل عمله وجزيل أجره، فشكر الله مساعي الجميع».

وهذا واضح لمن سبر تاريخ فقه الشيعة، ودرس طبقات فقهاءهم ومحدثيهم، ولم يكن للمحدثين مذهب فقهي خاص بهم، ولملفقهاء والمجتهدين مذهب آخر يضاد المنهج الأول، بل كان لكل مسؤولية معينة، ووظيفة خاصة تجاه الدين.

الأخباريّة منهج مبتدع

قد تعرّفت على أنّه لم يكن بين علماء الشيعة منهجان متقابلان متضادّان في مجال القروع، حتّى يكون لكلّ منهج مبادئ مستقلة، ويناقض أحدهما الآخر، بل كان الجميع على خطّ واحد، وكان الاختلاف في لون الخدمة وكيفية أداء الوظيفة إلى أن ظهر في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الشيخ محمّد أمين ابن محمّد شريف الاسترآبادي السدي جاور المدينة المنورة ومكة المشرفة، وتلمذ فيها على الشيخ محمّد بن علي بن إبراهيم الاسترآبادي صاحب كتاب: «منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال» عشر سنين^(١)، وتوفي (عام ١٠٣٣ هـ)^(٢) فابتدع مسلكاً خاصاً أسماه بالأخباريّة. وقد هاجم في تأليفاته المجتهدين العظام أمثال ابن أبي عقيل وابن الجنيّد والشيخ الطوسي ومن اقتفى آثارهم، حتّى زعم أن مسلك «الأخباريّة» الذي ابتدعه كان موجوداً في القرون السابقة غير أنّه كانت تمرّ عليها مراحل من نشاط وفتره وانتعاش وحمول.

١. الفوائد المدنيّة لمحمّد أمين الاسترآبادي: ١٨، وتوفّي أستاذه عام ١٠٢٨ هـ.

٢. لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف البحراني: ١١٩.

والعجب أنه استدَلَّ على انقسام علماء الإمامية إلى الأخباريين والأصوليين بأمرين:

١. ما ذكره شارح المواقف حيث قال: كانت الإمامية أولاً على مذهب أئمتهم حتى تمادى بهم الزمان فاختلَفوا وتشعب متأخروهم إلى المعتزلة وإلى الأخباريين، وما ذكره الشهرستاني في أول كتاب الملل والنحل من أن الإمامية كانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول ثم اختلفوا في الروايات عن أئمتهم، حتى تمادى بهم الزمان فاختارت كل فرقة طريقة، فصارت الإمامية إلى معتزلة (إما وعيدية) أو تفضيلية، وإلى أخبارية (أما مشبهة) أو سلفية.^(١)

٢. ما ذكره العلامة في نهايته عند البحث عن جواز العمل بخبر الواحد، فقال: أما الإمامية فالأخباريون منهم لم يعولوا في أصول الدين وفروعه إلا على أخبار الأحاد، والأصوليون منهم كأبي جعفر الطوسي وغيره وافقوا على خبر الواحد ولم ينكروه سوى المرتضى وأتباعه.^(٢)

يلاحظ عليه: أن كلا الشاهدين أجنيبان عما يرومه الأمين.

أما الشاهد الأول: فهو نقله بالمعنى، ولو نقل النص بلفظه لظهر للقارئ الكريم ما رآه شارح المواقف، وإليك نصه: ... وتشعب

١. لاحظ شرح المواقف ٨: ٣٩٢. ولم نجد النص في الملل والنحل. ولاحظ الفوائد المدنية: ٤٣ و ٤٤.

٢. الفوائد المدنية: ٤٣ و ٤٤.

مشأخروهم إلى «المعتزلة» إما وعيدية أو تفضيلية (ظ. تفضلية) وإلى «أخبارية» يعتقدون ظاهر ما ورد به الأخبار المتشابهة، وهؤلاء ينقسمون إلى «مشبهة» يجرّون المتشابهات على أن المراد بها ظواهرها، و«سلفية» يعتقدون أن ما أراد الله بها حقّ بلا تشبيه كما عليه السلف وإلى ملتحنة بالفرقة الضالة.^(١)

يلاحظ عليه أولاً: أن مسلك الأخبارية الذي ابتدعه الشيخ الأمين ليس إلا مسلكاً فقهياً يشكل سُداءً ولحمته عدم حجّة ظواهر الكتاب أولاً ولزوم العمل بالأخبار قاطبة من دون إمعان النظر في الأسناد، وعلاج التعارض بالحمل على الثقة وغيرها ثانياً، وعدم حجّة العقل في استنباط الأحكام ثالثاً.

وما ذكره شارح «المواقف» فهو راجع إلى المسائل العقائدية دون الفرعية ومن بين هذه المسائل يخص الصفات الخبرية بالبحث كالبعد والإستواء والوجه وغير ذلك ممّا ورد في الأخبار بل الآيات واتهم الإمامية بأنهم يعتقدون بظواهر الأخبار المتشابهة وينقسمون في التعبد بها إلى طوائف ثلاث: مشبهة، وسلفية، وملتحنة بالفرق الضالة.

والحكم بأن ما ذكره شارح المواقف راجع إلى المسلك الذي ابتدعه الاسترآبادي عجيب جداً مع اختلافهما في موضوع البحث وابتناء المسلك الأخباري على أسس وقوائم لم تكن معروفة بها عند الطائفة الأولى.

١. المواقف ٨: ٣٩٢. يريده من الفرقة الضالة، فرقة المعتزلة، وهذا التعبير الجارح بمبتدع عن

أدب شارح المواقف السيّد شريف الجرجاني.

وأما ما ذكره العلامة فهو أيضاً لا يمت إلى مسلك الأخبارية المبتدع بصلته، بل هو راجع إلى مسألة خلافية بين علماء الإمامية من زمن قديم، وهو هل الخبر الواحد حجة في الأصول كما هو حجة في الفروع أو لا؟ فالمحدثون والممارسون للأخبار والذين ليس لهم شأن إلا الغور في الأخبار ذهبوا إلى القول الأول، والممارسون لعلم الأصول الذين يحكمون العقل في مجال العقائد يقولون بالثاني.

فتفسير الأخباري في كلام العلامة الذي لا يقصد إلا من يمارس الأخبار ويدونها وينقلها كما يفعلها كل المحدثين، بمسلك الأخباري الذي هو مسلك فكري فقهي عجيب جداً.

ولسنا متفردين بتوصيف مسلكه بالإبتداع - لو لم نقل أنه كان حركة رجعية عرقلت خطى الأمة عن التقدم والتطور وأقفلت باب البحث في الأسانيد والمتون كما سدت البحث حول كثير من المسائل الأصولية - حتى أن المحدث البحراني - الذي كان أخبارياً معتدلاً جداً وبعد كتابه الحقائق من أنفس الكتب الفقهية لا سيما في جمع الأخبار وتفسيرها - يعترف بذلك ويقول في ترجمة الأمين الاسترآبادي: «وكان فاضلاً محققاً مدققاً ماهراً في الأصوليين والحديث، أخبارياً صلباً، وهو أول من فتح باب الطعن على المجتهدين، وتقسيم الفرقة الناجية إلى أخباري ومجتهد، وأكثر في كتابه الفوائد المدنية من التشنيع على المجتهدين، بل ربما نسبهم إلى تخريب الدين، وما أحسن وما أجاد، ولا

وافق الصواب والسداد، لما قد ترتب على ذلك، من عظيم الفساد، وقد أوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه في كتابنا «الدرر النجفية» وفي كتابنا «الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة» إلا أن الأول منها استوفى البحث في ذلك بما لم يشتمل عليه الثاني^(١).

وقد ترجمه صاحب «الروضات» ترجمة مفصلة وذكر الموارد التي طعن فيها على المجتهدين وذكر ردود المجتهدين عليه بما لا مزيد عليه^(٢).

ومما يدعو إلى العجب أن الأمين: ينهي مسلكه إلى أستاذه محمد بن علي بن إبراهيم مؤلف كتاب «منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال» مع أن العناية بعلم الرجال والدقة في الأسانيد التي كرس الأستاذ عمره فيها لا يجتمع مع مسلك الأخبارية القائل بقطعية الأخبار، التي تُغني عن الرجوع إلى علم الرجال.

حَنْ قَدْخَ لَيْسَ مِنْهَا

هذا ولقد ألف «علي حسين الجابري» من طلاب كلية الآداب في

١. لؤلؤة البحرين: ١١٨-١٧٧، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم.

٢. روضات الجنات: ١/ ١٢٠-١٣٩. وذكر أن الفوارق بين المنهجين ترتضي إلى ثلاثين أصلاً، ثم ذكر رؤوسها. فلاحظ الصفحات ١٢٧-١٣٠، الطبعة الحديثة، وبسط الكلام في ترجمته في مادة «أمين» فائلاً: بأن تصديره بـ «محمد» للتركيب وليس جزءاً من الاسم، وعلى تلك الضابطة مشى في جميع الكتاب، وتبعه غيره في بعض تأليفه.

جامعة بغداد رسالة أسماها بـ «الفكر السلفي عند الشيعة الاثني عشرية»، حاول فيه أن يثبت أن الفكر السلفي هو الفكر الإمامي الاثني عشري الأصيل قبل أن تتداخل فيه الأهواء، وتتجاذبه الرياح العواصف، وقد طبع الكتاب ببيروت عام ١٩٧٧ م، ونال بهذا المؤلف درجة الماجستير من نفس الكلية، وقد أطراه أستاذه المشرف على تلك الرسالة «كامل مصطفى الشبي» بقوله: لقد خاض الجابري في بحر مائج، وجهد كثيراً حتى أخرج منه صيداً شهيماً يمثل في هذا الكتاب الذي يغبطه كل باحث.

ونحن نقدر جهد المؤلف حيث إنه أهدى العدة اللازمة لكتابة هذه المواضيع من تاريخ فقهاء المشرق، ولكن نؤاخذ عليه بأمور:

١. إن السلفية لم تكن مذهباً خاصاً ولا منهجاً معيناً دارجاً بين

المسلمين من غير فرق بين السنة والشيعة، وإنما هو من مبدعات ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) ومن تبعه في القرن الثاني عشر كمحمد بن عبد الوهاب (المتوفى ١٢٠٦ هـ) وكانت الغاية من اختراع هذه الكلمة هو تبرير عقائدهما، فالتشبيه والتجسيم والجمود على حرفية الصفات الخبرية كاليد والوجه لله سبحانه تعد جميعها أساساً لمذهب الأول، والمنع عن السفر إلى زيارة النبي ﷺ وطلب الشفاعة منه يعد أساساً آخر لمذهب الثاني، فأبدها ذلك المصطلح في كتبهم أو نسبها ما ابتدعاه إلى السلف، ولما أخذت الدعوة الوهابية تنتشر في الأراضي المقدسة

تحت وطأة التهيب والترغيب راج تداول لفظ السلفية بين أصحاب القلم ووسائل الإعلام.

وفي هذا الصدد يقول بعض المفكرين من أهل السنة: إن اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها بدعة طارئة في الدين، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة، ولا الخلف الملتزم بهجه. ^(١)

٢. إن الكاتب حاول أن يثبت أن مسلك الأخبارية الذي ابتدعه محمد أمين الاستر آبادي في أوائل القرن الحادي عشر كان استمراراً للسلفية التي كانت تغلب على الشيعة في عصر الأئمة وحتى بعد الغيبة إلى أن انتهت إلى عصر أمين الأخباري، ثم إنه لدعم ذلك أثبت لمعلم الأمة «الشيخ المفيد» جانباً سلفياً وجانباً عقلياً، وزعم أن تلميذه المرتضى طور جانبه العقلي إلى أن وصل إلى ذروته، كما أثبت نظير ذلك لتلميذه الشيخ الطوسي، ولم يكتف بذلك حتى قال في حق المحقق: إنه بغض النظر عن كل ما قيل عن دور المحقق في ميدان التشريع الأصولي والعقلي، تبقى مسألة المحافظة السلفية عنده على الأحاديث واضحة، ربّما بتأثير بعض شيوخه، وقد حلّ كتابه «شرائع الإسلام» في حلقات الدرس الأصولي - الاثنى عشرية - بدلاً من كتاب «النهاية» للطوسي، وهذا يعني الكثير بالنسبة للفكر السلفي. ^(٢)

١. السلفية مرحلة زمنية: ١٣. ولاحظ: بحوث في الملل والنحل: ١/ ٣١٨-٣٢٩.

٢. لاحظ: الفكر السلفي: ٢١٢ و ٢١٣ و ٢٣٧.

وما ذكره لا يثبتني على أساس رصين، إذ كيف يتهم الشيخ المفيد بجانب سلفي مع أنه المتكلم الذي يعتمد في إثبات الأصول والعقائد على «العقل» و«البرهان» ويقضي في الأحاديث بالضوابط التي يقدّرها الأصوليون في أبحاثهم، وليس كتابه «المقنعة» دليلاً على كونه سلفياً. وقد عرفت أن مشاهير الفقهاء كانت لهم ألوانٌ مختلفةٌ من الكتابة، فللشيخ الطوسي كتاب «النهاية»، وفي الوقت نفسه كتاب «الخلاف» و«المبسوط»، كما إن تأليف «شرائع الإسلام» للمحقق لا يمت إلى كونه سلفياً بصفة، بشهادة أنه كتب «المعتبر» أيضاً فالأول من المتون الفقهية الخالية عن الاستدلال الأقلّياً والثاني كتاب استدلالٍ مبني على الضوابط المقررة.

والمعجب أن الكاتب يصرّ على أن الفكرة السلفية الراجحة بين أصحاب الأئمة في القرون الثلاثة، والتي روجها الأمين، لم تنزل راجحة بين علماء الشيعة عبر القرون من عصر الكليني إلى زمان الأمين، مع أنه يصرّح بانقطاع الفكرة بعد رحيل الكليني إلى زمانه، وأنه هو الذي أعاد الفكرة على الساحة بفضل إرشاد أستاذه الشيخ محمد الأسير آبادي مؤلف الرجال الكبير والمتوسط والصغير وإليك نص عبارته:

وأول من عقل عن طريقة أصحاب الأئمة عليهم السلام واعتمد على فن الكلام وعلى أصول الفقه المبنيين على الأفكار العقلية المتداولة بين العامة - فيما أعلم - محمد بن أحمد بن الجنيد (المتوفى ٣٨٥هـ) العامل

بالقياس وحسن بن علي ابن أبي عقيل العماري المتكلم، ولما أظهر الشيخ المفيد حسن الظن بتصانيفها بين يدي أصحابه - ومنهم السيد الأجل المرتضى وشيخ الطائفة - شاعت طريقتهما بين متأخري أصحابنا - قرناً فقرناً - حتى وصلت النوبة إلى العلامة الحلبي فالتزم في تصانيفه أكثر القواعد الأصولية للعامة ثم تبعه الشهيدان والفاضل الشيخ علي (يريد المحقق الكركي) (المتوفى ٩٤٠ هـ) ^(١).

ولو لاحظ الإنسان ذلك الكتاب «الفكر السلفي» لرأى أن المؤلف أتى بمصادر حجة في الهوامش، وربما يتخيل القارئ أن الكاتب برهن على ما كتبه وسطره بالمصادر والمآخذ، غير أنه لا يجد في جميع ما كتبه حول القرون العشرة إلى زمان الشيخ مجتهد أمين الاستر آبادي دليلاً واضحاً على أن المسلك الأخباري بالمعنى الذي نبأه الاستر آبادي كان امتداداً لما كان عليه السلف في العصور السابقة، بل إن كل ما قاله الكاتب ليس سوى استنتاجات ونظريات شخصية تقصّر عن إثباتها، المصادر والمآخذ، ولأجل ذلك لا مناص للقارئ الكريم من أن يتهم الاستر آبادي باختراع هذا المسلك، لأنه لا يرى له جذوراً بصورة منهج فقهي رسمي بين الأصحاب المتقدمات على الاستر آبادي، كما على القارئ أن يتهم الكاتب بأنه يحاول إقصاء الشيعة عن مجال العقل والتعقل، والفكر والتفكير، عبر رميهم

بالسلفية واتباع الظواهر من دون دراستها وتقييمها في عقلية استنباطية اجتهادية، وبخاصة أن الكتاب طبع في عهد النظام البعثي الذي يتبنى محاربة هذه الطائفة وتوجيه الضربات إليها، وهو يهيمن على مراكز الثقافة والفكر كالمعاهد والجامعات.

كيف لا وقد عرفت - في ما أسلفنا - على أن انقسام العلماء إلى أهل الحديث وأصحاب الاجتهاد لا يدل على كون الأول مسلماً فقهياً أو عقائدياً تبناه فحول الشيعة وأكابرهم، وإنما كان ذلك تقسيماً للمسؤوليات الدينية، وكل يختار ما يميل إليه ذوقه وتدعوه إليه فطرته.

وقد كان في عصر الصادقين والكأظمين وبعدهما، تباران فكريان بين أصحاب الأئمة، فهم بين مكتب على الأخبار، وممارس لها، وبين أخذ بالنقل والعقل أمثال زرارة بن أعين وعبد الله بن يونس والفضل بن شاذان وتبعهم القديان ابن أبي عقيل وابن الجنيد لكن الشيخ المفيد وتلميذه المرتضى والشيخ الطوسي، جعلوا الجميع على نهج واحد، وهو الجمع بين النقل والعقل، وأنه عند التعارض يقدم العقل القطعي على النقل الظني.

نعم هنا فرق جوهري بين الأخبارية التي نادى بها الأمين الأسترابادي، وبين الأخبارية في عصر الأئمة، وهو أن الأخبارية في عصر الأئمة كانت تعني ممارسة الأخبار وتدوينها ونقلها، دون إعمال

الدقة بين صحيحها وسقيمها.

وأما الأخبارية التي ابتدعها الأمين الاسترآبادي، فهي أخبارية منهجية لها أسسها ودعائمها، وقد ألقى الفكرة بصورة البرهان والنقد على الأسس التي اعتمد عليها الأصوليون، فلذلك لا يمكن عدّ الأخبارية الحديثة امتداداً جوهرياً للأخبارية في عصر الأئمة.

نعم كانت الأخبارية البدائية ملهمة للشيخ الأمين على أن يصبغها بصبغة علمية.^(١)

بقي هنا شيء وهو تبيين المسلك الذي تبناه الأمين الاسترآبادي، وهو يبنى على أسس وقواعد:

مركز تحقيقات كميّة علوم دینی

١. لاحظ مصادر الفقه الإسلامي، ص ٣٩٠-٣٩١.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



يَبْتَنِي عَلَيْهَا الْأَنْخَبَارِيَّةُ



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

عدم حجّة ظواهر الكتاب^(١)

إنّ الأصل الأوّل من أصول هذا المسلك هو عدم حجّة الكتاب الذي يعرفه سبحانه بأنّه: ﴿نَبِيَّانَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢)، يقسول الأمين الاسرّآبادي: إنّ القرآن في الأكثر ورد على وجه التعمية بالنسبة إلى أذهان الرعية، وكذلك كثير من السنن النبوية، وأنّه لا سبيل لنا في ما لا نعلمه من الأحكام النظرية الشرعية أصلية كانت أو فرعية إلاّ السماع من الصادقين عليهم السلام، وأنّه لا يجوز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر كتاب الله ولا من ظواهر السنّة النبوية ما لم يعلم أحواضها من جهة أهل الذكر عليهم السلام بل يجب التوقف والاحتياط فيهما.^(٣)

وقال في موضع آخر: فإن قال قائل: كيف عملكم معاشر الأخباريين في الظواهر القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٤)،

١. ما جاء في المتن هو أتمّها، الفروق وأصولها، وإلاّ لقد عرفت أنّ الفوارق تنتهي إلى ثلاثين أصلاً.

٢. النحل: ٨٩.

٣. الفوائد المدبّنة: ٤٧.

٤. المائدة: ١، ٦.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَسْتَمِمْ الْنِّسَاءَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾^(٢) وفي ظواهر السنة النبوية مثل قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

قلنا: بأننا نوجب الفحص في أحوالهما بالرجوع إلى كلام العترة الطاهرة ﷺ فإذا ظفرنا بالمقصود وعلمنا حقيقة الحال عملنا بها، وإلا أوجبنا التوقف والتشيت.^(٣)

يلاحظ عليه بأنه إذا دار الأمر بين الأخذ بقول الاستر آبادي في وصف القرآن بأنه ورد في الأكثر على وجه التعمية بالنسبة إلى أذهان الرعية، وبين قول الرسول وعترته، فنحن نأخذ بالثاني.

فقد قال رسول الله ﷺ: «وإن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه».^(٤)

وقال ﷺ: «أيتها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم بخالف كتاب الله فلم أقله».^(٥)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف».^(٦)

٣. الفوائد المدنية: ١٦٤.

٥. الكافي: ١/ ٥٦.

١ و٢. المائدة: ٦.

٤. الكافي: ١/ ٥٥.

٦. الكافي: ١/ ٥٥.

وإذا لم يكن الكتاب حجة في مجال الإفتاء، فلماذا أرجع الأئمة عليهم السلام الرواة، في تمييز الشروط الصحيحة عن غيرها، إلى موافقة الكتاب ومخالفته، وقد تضافر عنهم قولهم: «المسلمون عند شروطهم»، إلا كل شرط خالف كتاب الله عز وجل فلا يجوز.^(١)

إن وصف الكتاب بعدم الحجية في مجال العمل والعقيدة، إهانة كبيرة لحجة النبي صلى الله عليه وآله ومعجزته الكبرى، وقد وصفه سبحانه بأن فيه هدى وبيانا وموعظة للمتقين، قال سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.^(٢)

فلو لم يكن الكتاب مقياساً لتمييز الحق عن الباطل، ومرجعاً لاستنباط الأحكام، فلماذا قام الإمام الرضا عليه السلام بإفحام أبو قرّة المحدث العامي حيث قال: رُوينا أن الله قسم الرؤية والكلام، فلموسى عليه السلام الكلام، ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية. فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس (قوله تعالى) ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾»^(٣)، «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا»^(٤) و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٥)، أليس محمد صلى الله عليه وآله؟

١. وسائل الشيعة ١٤: ٣٢٣، كتاب التجارة، الباب السادس من أبواب الخبارة الحديث ٢، وفي الباب أحاديث كثيرة في هذا المجال، فلاحظ.

٢. آل عمران: ١٣٨.

٣. الأنعام: ١٠٣.

٤. طه: ١١٠.

٥. الشورى: ١١.

قال أبو قرة: بلى. فقال الإمام عليه السلام: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ و﴿ليس كمثله شيء﴾، ثم يقول: «أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشرية». (١)

وهذا هو حسن الصيقل بقول: قلت لأبي عبد الله: رجل طلق امرأته طلاقاً لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فتزوجها رجل متعة انحل للأول؟ قال عليه السلام: لا، لأن الله يقول: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ (٢)، والمتعة ليس فيها طلاق (٣)، هذا ومن تتبع أحاديث العترة الطاهرة، يجدوها تسير جنباً إلى جنب مع القرآن، تتمسك بإشاراته فضلاً عن نصريحاته وظواهره، ولأجل ذلك كان أبو حنيفة يقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «لقد كان كلامه انتزاعات من القرآن».

وليعلم أن التمسك بالظواهر لا يمت إلى تفسير القرآن بالرأي بصفة.

١. الكافي: ٦/ ٧٤.

٢. البقرة: ٢٢٠.

٣. وسائل الشيعة ١٥: ٣٦٩، كتاب الطلاق، الباب التاسع من أبواب أقسام الطلاق، الحديث ٤.

ادعاء قطعية أحاديث الكتب الأربعة

هذا هو الأصل الثاني الذي ذهب إليه الأخباريون حيث جعلوا البحث عن حال الراوي من حيث الوثاقة وعدمها، أمراً لا طائل تحته، كما يكون تقسيم الأخبار من جانب الأصوليين إلى الأقسام الأربعة المعروفة، على طرف النقيض من هذا الأصل.

يلاحظ عليه: أن دعوى القطعية دعوى بلا دليل، كيف لا؟ ومؤلفو الكتب الأربعة لم يدعوا ذلك، وأقصى ما يمكن أن ينسب إليهم أنهم ادعوا صحة الأخبار المودعة فيها، وهي غير كونها متواترة أو محفوفة بالقرائن، والمراد من الصحة في مصطلحهم اقترانها بقرائن تفيد الاطمئنان بصدورها عن الأئمة، ولكن هل هذه الشهادة من المشايخ الثلاثة على صحة روايات كتبهم حجة لنا أو لا؟ التحقيق لا، لأن خبر العدل وشهادته إنما يكون حجة إذا أخبر عن الشيء عن حسن لا عن حدس، والإخبار عن الشيء بالحدس لا يكون حجة إلا على نفس

المخير، ولا يعدُّو غيره إلَّا في موارد خاصَّة. ولأجل هذه النكتة نرى أنَّ المشايخ نقلوا الروايات بأساندها حتَّى يتدبَّر الآخرون فيما ينقلونه ممَّا صحَّ لديهم، ولو كانت شهادتهم على الصَّحَّة حجَّة على الكلِّ لما كان وجه لتحتمل هذا العبء الثقيل، أعني نقل الروايات بأساندها.

٣

إنكار حجَّة العقل في مجال الاستنباط

هذا هو الأصل الركين عند الأخباريين وقد طعنوا به الأصوليين الذين ذهبوا إلى حجَّة العقل في مجال الاستنباط، وسيأه محمَّد أمين الأمّتر آبادي «الاعتماد على الدليل الظنّي في أحكامه تعالى» وقد استنبط ذلك من مقدّمة وصفها بأنّها دقيقة وشريفة وقال: العلوم النظرية قسمان، قسم ينتهي إلى مادّة هي قريبة من الإحساس، ومن هذا القسم علم الهندسة والحساب، وأكثر أبواب المنطق، وهذا القسم لا يقع فيه الاختلاف، وقسم ينتهي إلى مادّة بعيدة عن الإحساس ومن هذا القسم الحكمة الإلهية والطبيعية وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، والمسائل النظرية الفقهية، وبعض القواعد المذكورة في علم المنطق، ومن ثمّ وقع الاختلاف بين الفلاسفة، في الحكمة الإلهية والطبيعية، وبين علماء الإسلام في أصول الفقه والمسائل النظرية الفقهية، وبعض

القواعد المذكورة في علم المنطق، والسبب في ذلك هو أن القواعد المنطقية إنما هي عاصمة عن الخطأ من جهة الصورة لا من جهة المادة، وليس في المنطق قاعدة بها نعلم أن كل مادة مخصوصة داخلة في أي قسم من أقسام مواد الأقيسة، بل من المعلوم عند أولي الأبواب امتناع وضع قاعدة تتكفل بذلك. ^(١)

يلاحظ عليه أولاً: بأن الأصوليين لا يعتمدون على الدليل العقلي الظني، بل يعتمدون على الأحكام العقلية القاطعة التي اتفقت عليها عقول الناس وفطرهم السليمة، ولا يخالف فيه أحد، إلا إذا كان متأثراً بفكرة مسبقة، وهي نظير الأحكام القطعية التي يستغل العقل بها في مجال إثبات الصانع وصفاته، أو قبح إعطاء المعجزة للمتنبي الكاذب، أو لزوم عصمة النبي ﷺ.

وليست الأحكام العقلية القطعية التي لها دور خاص في استنباط الأحكام الكلية، شيئاً مبتدعاً، بل هي أمر يعتمد الكتاب والسنة عليه في احتجاجهما ومناظرتهما، ويتخذانها أصلاً مسلياً.

أما الكتاب فالله سبحانه يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

١. الفوائد المدنية: ١٢٩ و ١٣٠، وكلامه بقية من أرادها فليرجع إليه، وكلامه يُعرب عن أنه

كان يعتمد على الحسن وما هو قريب منه لا على العقل البحت وما هو بعيد عن الحسن، والعجب أن تلك الفكرة نفسها كانت تنمو في المغرب آنذاك، من دون أن تكون بين المفكرين صلة - حسب الظاهر - كنها سبوا فيك فيها بعد.

كَالْفُجَّارِ»^(١)، ويقول: «أَفْتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ»^(٢)،
ويقول: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»^(٣)، ويقول: «وَإِذَا فَعَلُوا
فَأَحْسَنَ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ»^(٤).

وهذه الآيات تستنطق فطرة كل إنسان وتنبهها على أن هناك
أصولاً مسلمة عند جميع أصحاب الفطرة والعقول، وهي حسنُ بعض
الأمور وتبجح البعض الآخر، وإن القرآن يعتمد في محاوراته عليها.

وأما السنة: فيكفي في ذلك قول الإمام الطاهر موسى بن
جعفر عليه السلام لتلميذه هشام بن الحكم في حديث مفصل: يا هشام، إن الله
على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل
والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول^(٥).

وهذا الحديث وغيره يعرب عن موقف الإسلام السامي من
الأحكام التي يستقل بها العقل شريطة أن يتجرد عن الأفكار المسبقة،
ويحكم حكماً باتاً عقلاً نبياً محضاً غير منبعث عن هذا الجانب، ويحترز
عن بعض الأساليب التي منع الشارع من إعمالها عند استنباط الحكم

١. سورة ص: ٢٨.

٢. القلم: ٣٥.

٣. الرحمن: ٦٠.

٤. الأعراف: ٢٨.

٥. الكافي: ١/١٣-١٦، والحديث مفصل مسهب، فراجع.

الشرعي كالأقيسة والاستحسانات وغير ذلك من الظنون المحظورة الممنوعة، وعند ذلك يتلخص دور العقل في مجال الاستنباط في الموارد التالية:

١. قبح العقاب بلا بيان، فتكون النتيجة الشرعية عدم لزوم الاحتياط.

٢. الاشتغال اليقيني يستلزم البراءة اليقينية، فتكون الوظيفة في مجال العلم الإجمالي هو الاحتياط.

٣. الملازمات التي يدركها العقل في عدة موارد لو قلنا بها، كالملازمة بين الإمتثال والاجزاء أو بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته أو حرمة ضده إلى غير ذلك مما للعقل إليه سبيل.

وثانياً: إن ما ذهب إليه الاستر آبادي من إفاضة الحجية على الحس، وإقصاء العقل عن مجال النظر هو نفس ما ذهب إليه الحسيون من الأوروبيين، ومما يثير العجب أن هذه النظرية اختارها الاستر آبادي في حين كانت النظرية الحسية رائجة في أوروبا، وقد توفي الاستر آبادي عام (١٠٣٣ هـ)، (١٦٢٣ م)، وقد توفي ديكارت عام (١٦٥٠ م). وقد كان هذا العصر عصر النهضة العلمية المبنية على الحس والتجربة، والفيلسوف الفرنسي «ديكارت» وإن لم يعتمد على الحس من باب أنه من أدوات المعرفة، غير أن النهضة العلمية التي أيدها «ديكارت»، وبعده «جان لوك» (١٧٠٤ م)، كان عصر النهضة العلمية الحسية المبنية على

الإيمان بالمحسوسات، ورفض المغيبيات والعقليّات، ولا أدعي أن الشيخ الأسترآبادي تأثر بتلك الموجة وإنما هو من باب تداهي الخواطر.

هذه هي بعض الأصول المهمة التي اعتمد عليها الأخباريون وفي طليعتهم الأمين الأسترآبادي في مسلكه المبتدع الذي لا يمت إلى مذهب السلف الصالح من علماء الإمامية بصلة.

ازدهار المسلك الأخباري بعد الأمين

ولقد أخذ المسلك الذي ابتدعه الشيخ الأخباري في الانتشار والذوب، واشتهر خلال قرنين في المحافل العلمية، حتى تأثر به عدد كبير من علماء الشيعة إلى عصر الأستاذ الأكبر المحقق البهبهاني (١١١٨-١٢٠٦ هـ)، وكانت الظروف آنذاك مناسبة لتنامي هذا المنهج لعلل لا يسع المجال لذكرها.

غير أن الأستاذ الأكبر البهبهاني قد قضى على تلك الفكرة، بفكره الناضج، وحججه الباهرة القاهرة، وجهاده المتواصل إلى أن رجع كثير من المتأثرين بالمسلك إلى الطريقة الحقة والمنهج الصحيح، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت من المسلك المذكور مخلفات وآثار غير محمودة عند المتأخرين من العلماء، فقام الشيخ مرتضى الأنصاري رحمته الله بإزالة ما بقي من تلك الرواسب في الأذهان بكتبه القيّمة، وأفكاره

الناضجة، وبحوثه الرائعة التي ألقاها في النجف الأشرف، فاستتب الأمر للأصوليين، ولم يبق من أتباع المذهب المبتدع إلا صباية كصباية الإناء، تظهر بين حين وآخر.

ونحن على يقين بأن إعادة هذه الفكرة إلى حيز الوجود في المحولات العلمية ما هي إلا مؤامرة حيكت لإفراغ التشيع عن طابعه العلمي، الذي كان سلاحه في مواجهة أعداء الدين عبر القرون، ومن الواضح بمكان أن أي أمة إن لم تعر أهمية للعقل والبرهان لأصحت فريسة سائغة للاستعمار، فتذهب ثقافتها وثرواتها أدراج الرياح، وتصبح أمة مضطهدة مستعمرة لا تملك حولاً ولا قوة ولا.

ولما كان الشيخ الأنصاري، هو البطل المقدام في القضاء على ذلك المنهج المبتدع سلطنا بعض الضوء على حياته وجهاده المتواصل وآثاره القيمة.

فهلم معنا أيها القارئ لنقف على حياته الكريمة وعطائه الثري في مختلف حقول العلم والمعرفة.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

حياة الشيخ الأنصاري



وشخصيته



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حياة الشيخ الأنصاري وشخصيته

قد صبَّ الشيخ الأعظم الأنصاري جهوده العلمية لإرساء قواعد الفقه والأصول في ضوء الكتاب والسنة والعقل، واجتثاث أصول المسلك الأخباري من خلال بحوثه وكتبه، فأداء لبعض حقّه، نقوم بترجمة موجزة لحياته وشخصيته.

ولد نبيُّ غدير عام (١٢١٤هـ) ينتهي نسبه إلى جابر بن عبد الله الأنصاري، وقد سرده بعض شخصيات أسرته هكذا:

الشيخ مرتضى بن الشيخ محمد أمين بن الشيخ مرتضى بن الشيخ شمس الدين بن الشيخ محمد شريف بن الشيخ أحمد بن الشيخ جمال الدين بن الشيخ حسن بن الشيخ يوسف بن الشيخ عبيد الله بن الشيخ قطب الدين محمد بن زيد بن أبي طالب بن عبد الرزاق بن جميل بن جليل بن نذير بن جابر بن عبد الله الأنصاري.

وكأنه يرويه الشاعر المفلق ويقول:

شرفٌ نتابع كابر عن كابر كالرمح انبوب على انبوب

فهو وليد البيت الطاهر، ذو المجد الأصيل، يشهد نسبه على شرف

أرومته، فنذير ابن جابر انتقل إلى مدينة «تُستر» أبان افتتاحها على يد عساكر الإسلام فالتقى رحل إقامته هناك وأسس هذه الأسرة العلمية التي لم تزل تتلألأ في كل قرن بمحدث بارع، أو فقيه متضلّع، أو خطيب مضقّ رضوان الله عليهم أجمعين.

وأما الشيخ الأنصاري فهو النجم اللامع بل الشمس البارزة في سماء هذه الأسرة الجليلية وهو من الفطاحل العظام الذين يضمن بهم المدهر إلا في فترات متقطعة متباعدة، قد قرأ الآليات^(١) والسطوح العالية في موطنه «دزفول» وتخرج على يد عمّه الشيخ حسين الأنصاري من أفاضل الأسرة، ولكن لم تقنع نفسه بما أخذ وتعلّم فيه فأخذ العدة مع والده لزيارة العتبات المقدسة عام (١٢٣٢هـ) وله من العمر (١٨) سنة فورد كربلاء المقدسة يوم كانت تزدهم حوزتها بفضلاء كبار، وعلماء فطاحل، وعلى رأسه العلّمان الجليلان:

١. السيّد محمّد بن السيّد علي المعروف بالسيّد المجاهد مؤلف «المناهل في الفقه» كما أنّ والده هو مؤلف «الرياض»، واشتهر بالمجاهد لأنه أفتى بالجهاد ضدّ الاحتلال الروسي لبعض مدن إيران الشمالية وتوفي عام (١٢٤٣هـ). وستوافيك ترجمته في فصل أساتذة الشيخ.
٢. الشيخ محمّد شريف الأملي المازندراني المعروف بشريف

١. المراد من العلوم الآلية ما يستخدم آلة لفهم الكتاب والسنة أو إقامة البرهنة كالنحو والصرف والبلاغة والمنطق.

العلماء المتوفى عام (١٢٤٥هـ).

وقد زار الشيخ بعدما وصل كربلاء مع والده، السيد المجاهد، بإبصار من عمته وأستاذه، لما كان بينهما من صلة وثيقة أيام دراسته في العراق، فلما تعرّف السيد المجاهد على الوالد والولد رحب بهما، ثم انتهى الكلام بينهم إلى مسألة فقهية تكلم فيها الشيخ بإذن والده، فظهر نبوغه وتوقّد فطنته للسيد المجاهد، وعند ذلك طلب من والده أن يتركه في كربلاء المقدسة للدراسة وعليه رعايته، فقبل الوالد، فأقام الشيخ أربع سنين فيها تردّد خلالها إلى حلقات دروس العلمين الجليلين، إلى أن احتلّ والي بغداد مدينة كربلاء المقدسة بأمر من الخليفة العثماني، فعادر الشيخ مهجرة ونزل الكاظميّة، فوجد هناك بعض مواطنيه فرجع معهم إلى موطنه دزفول فأقام هناك حوالي سنة، ولكن كيف تستقرّ نفس الشيخ في موطنه وقد ذاقّت حلاوة العلم، وتعرّف على آفاقه المشرقة، فعادر الموطن لمواصلة الدراسة في كربلاء، فأقام بها سنة هاجر بعدها إلى النجف الأشرف، فحضر هناك دروس المحقق الشيخ موسى كاشف الغطاء قرابة سنتين، ثمّ أحسّ في قرار ضميره أنّه أخذ ما يجب أخذه من أساتذة العراقي ولا بدّ من التجوّل في المدن الأخرى لعلّه يجد فيها بغيته، فرجع إلى إيران قاصداً موطنه «دزفول» وحذّث أهله بما يرومه ويقصده، فواجه المنع من جانب والدته، إلى أن استقرّ رأيها على الاستخارة، ولما فتح الشيخ المصحف الشريف بطلب الهداية والخيرة وافاء في صدر الصفحة قوله

سبحانه:

﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَاوُوهُ إِلَهِكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ﴾. ^(١)

فعند ذلك لم تجد الأم الحنون بُدأً من التسليم والنزول عند رغبته
فودعت ولدها داعية له بالسلامة والتوفيق، وقد شذت عضده بأخيه
الشيخ منصور وقد مثلت بعملها هذا قوله سبحانه: ﴿تَشْتَدُّ عَضْدُكَ
بِأَخِيكَ...﴾. ^(٢) وكان ذلك في عام (١٢٤٠ هـ).

رحلته العلمية وتجوّله في البلدان

بدأ الشيخ برحلته العلمية حتّى نزل بلدة «بروجرد» يوم كانت
الرئاسة العلمية فيها للشيخ أسد الله البروجردى مؤلف «فوائد
الأحكام» المتوفى عام (١٢٧٠ هـ). فأقام هناك شهراً تاماً لم يجد فيها
بُغْيَةً فغادرها ونزل مدينة إصفهان يوم كانت الزعامة العلمية لعالمها
الوحيد السيد محمد باقر الشفني - المعروف بحجة الإسلام - وهو الرجل
الورع الذي لم يكن تأخذه في الله لومة لائم، وقد لبى دعوة ربه عام
(١٢٦٠ هـ). وقد جرت بينه وبين الشيخ مباحثات ومناظرات طلب
على أثرها عن الشيخ الإقامة والاشتغال بالتدريس هناك، ولكن الشيخ
اختار المغادرة ومواصلة رحلته العلمية حتّى هبط بلدة «كاشان» فنزل

في بعض مدارسها وكان الزعيم العلمي فيها يومذاك، الشيخ أحمد النراقي مؤلف «مستند الشيعة في أحكام الشريعة» الذي يعدّ خبيراً دليلاً على براعته العلميّة ونبوغه في التفريع والبرهنة على الفروع وقد توفّي عام (١٢٤٥ هـ) فوجد الشيخ أمنيته هناك فأقام فيها أربع سنين حضر خلالها دروسه ونهغ في الفقه والأصول على يديه كما اشتغل بالتأليف والتصنيف مضافاً إلى التدريس.

ولما عزم الشيخ على أن يغادر كاشان عام (١٢٤٤ هـ) نال من أستاذه الرؤوف إجازة مفصلة أدّى فيها حقّ الشيخ حيث وصفه بالقباب بدیعة تُعرب عن إعجابه الشديد بتلميذه، وسوافيك نزرٌ منها.

ثم إن الشيخ ودّع أستاذه وترك المدينة إلى أن نزل مشهد الرضا عليه السلام فأقام هناك شهراً قليلاً ثم رجع إلى طهران ومنها إلى درفول وقد استغرقت رحلته العلميّة ست سنوات، ثم وجد في نفسه شوقاً مؤكداً للرحيل إلى العراق مرّة ثالثة، بعدما واجه بعض الأحداث المريبة في بلده، فهاجر إلى النجف عام (١٢٤٦ هـ) وكانت يومذاك، المدرسة الكبرى للشيعة والتي تزدهم بآلاف الطلاب والفضلاء الأساتذة وكانت الرئاسة العلميّة على عاتق العلمين الكبيرين:

١. الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفّي عام (١٢٥٤ هـ).

٢. الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر المتوفّي عام (١٢٦٦ هـ).

فقد تتلمذ الشيخ في رحلته هذه على يد الشيخ علي كاشف الغطاء، إلى أن استقل بالتدريس وطار صيته في أوساط النجف وأقبل على بحوثه العلمية لفيف من العلماء والفضلاء، واشتهر بالنبوغ والتفوق العقلي إلى حد عرفه الصغير والكبير بالعلم والفضل والتعمق والدقة.

صاحب الجواهر يختار الشيخ للزعامة

كان الشيخ محمد حسن مؤلف «الجواهر» الذي يعد أكبر موسوعة فقهية في فقه الإمامية كتبت لحد الآن، زعيماً علمياً لا ينازعه أحد، وكان قد طعن في السن فلما أحس باقتراب أجله وأنه يوشك أن يلبي دعوة ربه، أحضر - انطلاقاً من المسؤولية الكبرى التي كان يتحملها طوال سنين - أكابر الحوزة وعلماءها في بيته حتى يتخذوا قراراً بشأن زعامة الحوزة، والمرجععية الكبرى للشيعة من بعده، فلما حضر العلماء تصفح وجوههم فلم يرَ بينهم الشيخ الأنصاري، فأمر بإحضار الشيخ، فلما دخل مجلسه أخذ بيده وأحله إلى جنبه ووضع يده على قلبه وقال: الآن طاب لي الموت، ثم أقبل على الحاضرين وقال: هذا مرجعكم بعدي. ثم خاطب الشيخ وقال: قلل من احتياطاتك فإن الشريعة سهلة سمحة. وبذلك انتخب الشيخ بإيصاء من مرجع رسمي خضعت له القلوب والأفكار، للزعامة العلمية والمرجععية، ثم

بعد إنفضاض المجلس، قام الشيخ إلى حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مبتهلاً عنده إلى الله سبحانه أن يعينه في هذه المسؤولية الخطيرة ويصونه من الزل.

ولما لبى صاحب الجواهر دعوة ربه، انتقلت إليه الزعامة بلا منازع، وقام بأعبائها بقلب سليم، واستمر في تسيير أمور الجماعة، بحزم وحكمة وإرادة صلبة لا تعرف الضعف والكلل، ولم يكن رائده إلا رضا سبحانه وتعالى إلى أن لقي ربه في ليلة السبت المصادفة ليلة الثامنة عشرة من شهر جمادى الأخرى من شهر عام (١٢٨١هـ)، وشيخ جثمانه الطاهر جميع العلماء، وفي طلبعتهم تلاميذه الأكابر، ودفن في حجرة من حجرات الصحن الحيدري الشريف، وتقع مقبرته على يسار الخارج من الباب الجنوبي للحضرة العلوية المقدسة.

هذه هي الإمامة صابرة وعرض لحافظ الحياة الشيخ الأنصاري الذي كرس حياته في التدريس والتأليف وإعداد الفضلاء وتربية المجتهدين، وإرساء دعائم النهضة العلمية الدينية الحديثة التي تعد بحق ثورة علمية كبرى قلما اتفق نظيرها في العصور السابقة.

ولكي يقف القارئ على عظمة الشيخ في مجال العلم والفضل، وعلو كعبه في صعيد الزهد والتقوى، نأتي ببعض الكلمات الصادرة من أساتذته وتلاميذه حتى يكون كالمنكشف للحقيقة عن كذب.

كلمات الإطراء وجُعل الثناء في حقّه

إنّ الشيخ الأنصاري كالشمس الساطعة غني عن التعريف ،
ويشهد على ذلك آثاره وآراءه وما برز من براعه من كتب ورسائل ،
إلا أنّ هذا لا يمنع من أن نقف على آراء الآخرين من أساتذته
وتلامذته في حقّه ، ولذلك نقتطف شذارات من أقوال العلماء في
حقّه .

١ . كتب الشيخ التراقي إجازة مفصلة له ، وصفه فيها بقوله :
«وممّن جدّ في الطلب وبذل الجهد في هذا المطلب ، وفاز
بالحفظ الأوفر الأسنى ، وحظي بالنصيب المتكاثر الأهنئ ، مع ذهن
ثاقب ، وفهم صائب ، وتدقيق وتحقيق ، ودرك غائر رشيق ، والورع
والتقوى والتمسك بتلك العروة الوثقى ، العالم النبيل والمهذب
الأصيل ، الفاضل الكامل والعالم العامل ، حاوي المكارم
والمناقب ، والغائر بأسنى المواهب ، الألمعي المؤيد ، والسالك طرق
الكمال للأبد ، ذو الفضل والنهي والعلم ، الشيخ مرتضى بن الشيخ
محمد أمين الأنصاري التستري أيده الله بتأييده ، وجعله من كَمَلِ
عبيده ، وزاد الله في علمه وتقاه ، وحيّاه بما يرضاه ، وقد استجاز بعدما
تردّد إليّ وقرأ عليّ وثبتت فضيلته لسديّ ، ولما كان أيده الله سبحانه
لذلك أهلاً ، وإنجاح مسؤوله فرضاً لا تفلأ ، فأجزت له أسعد الله جدّه

وضاعف كدّه وجدّه أن يروي عني كتاب نهج البلاغة ...»^(١).

٢. نُقل أن الشيخ علي كاشف الغطاء (المتوفى ١٢٥١ هـ) أستاذ الشيخ: كلّ شيء سماعه أعظم من عيانه إلا الشيخ مرتضى فإن عيانه أعظم من سماعه.

٣. وقال عنه السيّد حسين البروجردي (المتوفى ١٢٦٧ هـ) المعاصر للشيخ في أرجوزته المعروفة بـ «نخبة المقال في علم الرجال»:

و ابن أمين مرتضى الأنصاري شمس الشمس قدوة الأخيار
٤. وقال عنه المحدث النوري (المتوفى ١٣٢٠ هـ)، بعدما ذكر أن نسبه ينتهي إلى جابر بن عبد الله الأنصاري: ومن آثار إخلاص إيمان «جابر» وعلائم صدق ولأنه أن تفضل الله تعالى عليه وأخرج من صلبه مَنْ نُصِرَ المِلَّةَ والدين بالعلم والتحقيق والدقّة، والزهد والورع والعبادة والكياسة، بما لم يبلغه من تقدّم عليه ولا يحوم حوله من تأخر عنه. وقد عكف على كتبه ومؤلفاته وتحقيقاته، كلّ من نشأ بعده من العلماء الأعلام والفقهاء الكرام، وصرفوا همهم، وبذلوا مجهودهم، وحسبوا أفكارهم وأنظارهم فيها وعليها، وبعد ذلك معترفون بالعجز عن بلوغ مرامه فضلاً عن الوصول إلى مقامه جزاء الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير

١. الإجازة مفصلة مذكورة برمتيها في كتاب شخصيّة الشيخ الأنصاري: ١٢٠-١٣٠، والمؤلف من أحفاد أخي الشيخ الأنصاري المعروف بالشيخ منصور الذي شدّت أمّ الشيخ عضده به.

جزاء المحسنين. (١)

٥. يقول الشيخ أبو المحاسن محمد بن داود (المتوفى ١٣٠٨ هـ) وهو من تلامذة الشيخ في كتابه «المحاسن في الإنشاء»: كان رجلاً آدمياً، طويل القامة، كث اللحية، مليح الشائل، واسع الجبين، ضعيف الباصرة، قوي البصيرة، تام الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، إذا تكلم حرك سبابة، قليل الخطب، كثير الضبط، دقيق النظر، عميق الفكر، سريع الانتقال، شديد الحفظ، حافظاً لكلام الله المتعال والحكم والأمثال. (٢)

٦. يعرفه الشيخ حسن المامقاني (١٣٢٣ هـ) أحد تلامذته بقوله: الحبر المحقق، والنحرير الموفق، حجة الإسلام، مولى الأنام، مركز دائرة النباهة، سلطان إقليم الفقهة.

كان - قدس الله سره - جمع بين الحفظ وسرعة الانتقال، واستقامة الذهن، وقوة الغلبة على من يحاوره، لا يعي عن حل إشكال ولا جواب إيراد، كان من علو همته أنه كان يعيش معيشة الفقراء، ويبسط البذل على المستحقين خصوصاً سراً، وكان غالباً لا يجهر بالعطاء - ومع ذلك لا ير لنفسه فخراً ولا شأناً. (٣)

١. مستدرک الوسائل ٣: ٣٨٣ و٣٨٤.

٢. ذكرى شيخنا الأنصاري: ٢٢ نقلاً عن المحاسن في الإنشاء.

٣. حاية الأعمال: ٢.

٧. يعرفه المحقّق الخراساني (المتوفّى عام ١٣٢٩) في ديباجة حاشيته على الرسائل، بقوله: علامة الآفاق، وأستاذ الكلّ على الإطلاق، عماد الملة والسدين، ومروّج شريعة سيّد المرسلين، ونساج الفقهاء والمجاهدين من القدماء والمتأخّرين، فخر المحقّقين وافتخار المدقّقين الورع النقي والصفّي النقي علم الهدى أستاذنا ومولانا وآية الله في البورى الحاج الشيخ مرتضى الأنصاري، تغمّده الله بغفرانه وأسكنه فسيح جنّاته.^(١)

٨. ووصفه سيّدنا العلامة السيّد محسن الأمين (المتوفّى ١٣٧٣هـ) في أعيان الشيعة بقوله: الأستاذ الإمام المؤسس، شيخ مشايخ الإماميّة، وقد انتهت إليه رئاستهم العامّة في شرق الأرض، وغربها، وصار على كتبه ودراسته، معوّل أهل العلم، لم يبق أحد لم يستفد منها، وإليها يعود الفضل في تكوين النهضة العلميّة الأخيرة في النجف الأشرف، وكان يملّي دروسه في الفقه والأصول، صباح كلّ يوم وأصيله في الجامع الهندي، حيث ينصّ فضاؤه بما ينيف على الأربعمئة من العلماء.^(٢)

٩. وقال أستاذنا الكبير السيّد محمّد الحجة الكوه كمرى (١٣٠١هـ -

١٣٧٢هـ) في درسه الشريف ما ترجمته:

١. حاشية الخراساني على الرسائل: ١.

٢. أعيان الشيعة ١٠: ١١٨.

قد أشعل الشيخ مشعلاً منيراً في طريق العلم، وسار على ضوئه كل من أعقبه من العلماء والمجتهدين.

١٠. زار الدكتور عبد الرزاق المصري السنيهوري - مؤلف كتاب «الوسيط» في عشرة أجزاء - جامعة بغداد وخاصة كلية الحقوق وقد شرح في كتابه السابق «القانون المدني المصري» الذي بدء بتأليفه عام ١٩٣٦.

وقد وقف في زيارته هذه على كتاب المناجر للشيخ الأنصاري وأعجبه آراء الشيخ وأفكاره في باب المعاملات، فقال - معرباً عن إعجابه: «لو اطلعت على هذا الكتاب قبل تأليفي الوسيط لغيرت كثيراً من آرائي»^(١)

إلى غير ذلك من جمل الإطراء، وكلم الثناء التي لا تستطيع تحديد شخصية عظيمة مثل الشيخ الأعظم وكأني بأبي الفتح البستي الشاعر المفلق يريد الشيخ الأعظم بقوله:

لا يُدرك الوصف المُنطري خصائصه

وإن يكن سابقاً في كل ما وصفنا

نعم هو الجوهر الفرد الذي لا ينتج له الزمان مثيلاً إلا في البرهة بعد البرهة، أو في القرن بعد القرن وكان مركز الدائرة للفضائل، فخطوط المكارم المنتهية إليه سواء لا توصف بالطول ولا بالقصر كيف

١. حدثني به بعض الثقات نقلاً عن بعض أساتذة كلية الحقوق ببغداد.

وهو حسب قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد أحين عقله، وأمات نفسه حتى دقّ جليله ولطف غليظه.^(١)

تأليفه وتصانيفه

قد ترك الشيخ آثاراً جلية لم يزل بعضها مدار الدراسة والبحث في جامعات الشيعة، وهو يعطي لكل موضوع في كل تأليف صفته الجديدة وقد طبع أكثرها، ونحن نشير إلى أسماؤها على وجه الإجمال:

١. رسالة في الإرث، ٢. رسالة في التقيّة، ٣. رسالة في التيمّم، ٤. رسالة في الخمس، ٥. رسالة في قاعدة الضرر والضرار، ٦. رسالة في القضاء عن الميت، ٧. رسالة في المراسعة والمضايقة، ٨. رسالة في التسامح في أدلة السنن (طبعت أيضاً في ضمن حاشية الأوثق على الرسائل)، ٩. رسالة في قاعدة من ملك شيئاً ملك الإقرار به^(٢)، ١٠. رسالة في مناسك الحج، ١١. تعليفة على استصحاب القوانين، ١٢. تعليفة على نجاة العباد، ١٣. تعليفة على بغية الطالب، ١٤. رسالة في علم الرجال، وهي تقرب في الحجم من خلاصة العلامة في ذلك العلم وتوجد نسخة منها في مكتبة الإمام الرضا عليه السلام وقد فرغ منها الكاتب عام

١. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الخطبة ٢١٥.

٢. هذه الرسائل طبعت إما في آخر المكاسب بعنوان الملحقات أو مع مطاوع الأنظار لتلميذه المعروف بالكلا تري وأخيراً بصورة مستقلة.

وفاة الشيخ (١٢٨١هـ)، ١٥. رسالة في الردّ على القائلين بقطعية الأخبار، وقد أشار إليه الشيخ في رسالة الظنّ من فرائده، ١٦. رسالة في الفرعة، ١٧. تعليقات على «عوائده» أستاذة النراقي، ١٨. كتاب الطهارة، وهو كتاب إسندي لابي مسوط مطبوع منتشر وقد علق عليها تعليقات منها تعليقات شيخنا الوالد الشيخ محمد حسين السبحاني المئوف عام (١٣٩٢هـ) وفي هذه الرسائل شواهد جلية على نضوج رأيه، وصفاء ذهنه. وعلى أنّه كان لا يترك في كلّ مسألة فقهية أو رجالية سؤالاً لسائل، ولا مجالاً لقائل، وتغلب على جميعها روح التحقيق والإيمان وإقناع القارئ فيما يرومه ويهدف إليه. وقد أفرغها الشيخ في قالب التأليف بقلم سيّال من غير إيجاز محلّ ولا إطناب ممّلى. ولكن السبب الذي جعل الشيخ في زمرة القلائل من العلماء هو ما نذكره من آثاره الجليلة.

١٩. الفرائد: المشهور بالرسائل، هذا الكتاب مؤلف من رسائل مختلفة، طبعت في مجلّد واحد تبحث عن أحكام القطع والظنّ، وتحدّد مجرى أصل البراءة والاشتغال، وتبحث عن الاستصحاب وعن أحكام التعادل والتراجيح، وقد صار هذا الكتاب منذ اشتهاره في الحوزات العلمية، مداراً للدراسة وقد أكتب على تدريسها ونحشبتها كثير من تلامذة الشيخ وتلامذة تلامذته وربّما يربو

عدد التعاليق على (٦٥) تعليقة. (١)

والحق أن الشيخ خدام العلم وأهله بهذا الكتاب القيم خدمة عظيمة ، وذلك لأنه قام :

أولاً: بتحرير أحكام القطع والظن ، وقد قسم الظن إلى ظن خاص وظن مطلق وأعطى الكل حكمه .

وثانياً: قام في رسالة البراءة والاشتغال بتبيين مجاريهما وقد كانت غير منقحة في كلمات السابقين فربما كانوا يتمسكون بالبراءة في موضع الاشتغال ، كما يتمسكون به في موضع البراءة أضف إلى ذلك أنه قرر موقف الدليل الاجتهادي من الأصل العملي فاستنتج أنه لا يمكن أن يحتج بهما معاً لحكومة الدليل الاجتهادي على الأصل العملي .

وثالثاً: قام في رسالة الاستصحاب بعقد تنبيهات بعد الفراغ من إثبات حجته بالأخبار. أودع الشيخ فيها أفكاره الناضجة وآراءه البديعة ، فمن راجعها رأى أنه المؤسس للكثير من القواعد الواردة فيها وإن كان لبعضها جذور في كلمات من تقدم عليه فلاحظ ما دبحه بقلمه الشريف حول الامتصحاب الكلي بأقسامه ، والامتصحاب

١. الدررمة إلى تصانيف الشيعة: ٦ / ١٥٢ ، مادة «الحاشية» وقد سقط من قلمه الشريف بعض التعاليق الموجودة في خزان الكتب كما أنه لم تسجل لديها التعاليق التي ألقت في الأعصار المتأخرة ومما سقط من قلمه الشريف حاشية «إرشاد الأفاضل» للوالد رحمه الله.

التعليقي وعدم حجّة الأصل المثبت^(١) والاستصحاب السببي
والمسببي على وجه تجدها برزمتها أفكاراً لم تفرط بها أذن الدهر قبل
ذلك قطّ.

وسبوا فيك بعض ما ابتكره في أصول الفقه في الفصل القادم.

٢٠. المتاجر المعروفة بالمكاسب: هو الكتاب الثاني الذي عليه
مدار الدراسة والبحث في الحوزات العلمية، وهو كتاب عظيم جليل لم
يسمح الدهر بمثله، يبحث عن أحكام المكاسب المحرمة أولاً، ثم عن
أحكام البيع ثانياً، ثم عن أحكام الخيارات والشروط ثالثاً، ثم عن
أحكام القبض والنقد والنسيئة رابعاً، وهناك بحوث طرحها الشيخ
خلال الكتاب لمناسبات اقتضاها المقام، ففيها دقائق علمية تعرب عن
كون الكتاب وليد فكر خارق للعادة، والمؤلف لا يغوص في بحار الفقه
إلا ويخرج بالدرر والدراري والجواهر الثمينة وقد تعرّفت على كلام
الدكتور عبد الرزاق السنهوري مؤلف: التيسيط: في حق الكتاب
ولأجل ذلك بعدّه المحقّق المامقاني من أحسن كتب الشيخ وأثمنها.^(٢)
وللكتاب تعاليق قيمة ذكرها الشيخ الطهراني في ذريعتي^(٣)،

١. نعم رينا يشير صاحب الجواهر إلى عدم حجّة الأصل المثبت، في مواضع من كتابه،
لاحظ ج ٣١: ١٣٤ و ٣٦٤ من كتاب «جواهر الكلام»، إلا أن الشيخ الأنصاري حققه

وحزّره بنحو يدعي وبمثال غير سابق.

٢. غاية الأمل، للشيخ حسن المامقاني المنوفي ١٣٢٣.

٣. الذريعة ٤: ٢١٦-٢٢١.

وربما تربو على ٣٠ تعليقة، وأحسن التعاليق تعليقة السيد
الطباطبائي رحمته الله.

٢١. مطارح الأنظار: وهو محاضراته في أصول الفقه، قسم
المباحث اللفظية بقلم تلميذه الشيخ أبو القاسم بن محمد علي بن هادي
النوري المازندراني الشهير بكلا نكري الفقيه (١٢٣٦-١٢٩٢) وقد
طُبعت وانتشرت.

٢٢. رسالة في الاجتهاد والتقليد، طبعت في مجموعة رسائل فقهية
وأصولية عام ١٤٠٤ هـ. ق. ومن الطريف أن الشيخ الأعظم مع أنه كان
ضعيف البصر وربما كانت المطالعة في الليالي أمراً صعباً عليه، قد كتب
مصحفاً كاملاً بخطه الشريف وهو موجود بين أحفاده، حشره الله مع
القرآن والعنزة.

ابتكارات الشيخ الأنصاري

في

حقلي الفقه والأصول

لا شك أنّ النوابع الذين يندرج وجودهم في المجتمع الإنساني لهم سمة الإبداع في مجال العلم والمعرفة، وشيخنا المترجم له من نوابع عصره، فله أفكار أبكار في الفقه والأصول تُعدّ أسساً جديدة في ذنبك العلمين لا سيما في علم الأصول لم يسبقه إليها غيره.

وهنا نحن نذكر بعض الأسس التي ابتكرها الشيخ في مجال أصول الفقه على وجه الإيجاز.

إنّ أصول الفقه تنقسم إلى مبحثين: لفظي وعقلي، وقد صدر من قلم الشيخ المباحث العقلية، وأسماها نفس الشيخ أو غيره بالفرائد واشتهرت بالرسائل.

وأما مباحث الألفاظ فقد قام بتقريرها وتحريرها تلميذه واسع الباع الشيخ أبو القاسم المعروف بكلانتر (المتوفى عام ١٢٨٧ هـ).

إنه قدس سره وإن ابتكر أموراً في المباحث اللفظية لكن معظم إبداعه تركز حول المباحث العقلية، وهما نحن نذكر بعض الأفكار الجديدة التي جاد بها في هذا الحقل.

١. أول من عقد بحثاً أصولياً للقطع

إن شيخنا الأنصاري أول من فتح باب الحديث عن القطع بالمعنى الدقيق للكلمة ونشير إلى رؤوس أهم أفكاره:

- أ. حجّة القطع حجّة ذاتية.
- ب. تقسيم القطع إلى طريقي وموضوعي.
- ج. تقسيم القطع الموضوعي إلى طريقي ووصفي.
- د. تقسيم القطع إلى قطع تفصيلي وقطع إجمالي.
- وهذا التقسيم الأخير صار سبباً لفتح باب واسع باسم العلم الإجمالي وشكل مبحثاً عظيماً في باب الاشتغال.
- هـ. وجوب الموافقة القطعية في العلم الإجمالي أو حرمة المخالفة القطعية.

و. قيام الأمارات مقام القطع الطريقي أو الموضوعي.

فإنّ بعض هذه العناوين وإن سبقه فيها غيره لكن هذا الترتيب الخاص وما فيها من الأفكار من ابتكاراته.

٢. الشك في الحجية كاف في عدم الحجية

فتح الأصوليون باباً في جواز التعبد بالظن وأن مقتضى الأصل الأولي في العمل بالظن ما هو؟^١ فاستقر نظرهم إلى أن مقتضى الأصل الأولي هو حرمة العمل بالظن، غير أنهم تطرقوا إلى إثبات ذلك الأصل من طرق مختلفة.

ولكن الشيخ ذكر دليلاً واضحاً وهو أن الشك في الحجية كاف في عدم الحجية. ولا نحتاج إلى تحشم دليل آخر، وذلك لأن نسبة مفاد الظن - الذي لم يدل دليل على حجتيه - إلى الله سبحانه يعد بدعة، والبدعة حرام بالأدلة الأربعة.

قال الشيخ ما هذا حاصله: إن حقيقة العمل بالظن هو الاستناد إليه في مقام العمل والالتزام بكون مؤداه حكم الله في حقه، وهذان الاثران لا يتربيان مع الشك في الحجية، لأن الاستناد إلى مشكوك الحجية في مقام العمل، وكذلك استناد مؤداه إلى الشارع تشريع عملي وقولي، دلت على حرمة الأدلة الأربعة، فإذا حرم الاستناد والاستناد وعلم ارتفاعهما في حالة الشك يعلم عدم حجية الظن، إذ لا معنى لوجود الموضوع (الحجية) مع عدم أثره، (الاستناد والالتزام بكون مؤداه حكم الله) وهذا معنى قولنا: إن الشك في الحجية يكفي في القطع بعدمها.^(١)

٣. تقسيم حالات المكلف إلى أقسام ثلاثة

إنَّ الشيخ الأنصاري قسم حالة المكلف الملتفت إلى الحكم الشرعي إلى أقسام ثلاثة بأنه إمَّا يكون شاكاً في الحكم أو ظاناً أو قاطعاً. وهذا التقسيم تقسيم طبيعي حسب حالات المكلف ولكن جعل التقسيم ثنائياً بإدخال الظن الذي قام الدليل على حجتيته، تحت القطع بالحكم الظاهري، وإدخال ما لم يقم على حجتيته تحت الشك، حتى يصير التقسيم ثنائياً دائراً بين الشك في الحكم والقطع به، كما فعله المحقق الخراساني، على خلاف الحالة الطبيعية التي تعرض المكلف وإن كان لكلامه أيضاً وجه.

مركز تحقيق تكملة أصول الفقه

٤. تبين مجاري الأصول العملية الأربعة

إنَّه عليه السلام بين مجاري الأصول العملية الأربعة - أعني: البراءة والاحتياط والتخيير والاستصحاب - وأنَّ مجرى الأول هو الشك في التكليف، ومجرى الثاني هو الشك في المكلف به بشرط التمكن من الاحتياط، ومجرى الثالث هو الشك في المكلف به حين تعذر الاحتياط. كل ذلك فيما إذا لم يكن في مورد الشك حالة سابقة، وإلا فإن كانت هناك حالة سابقة معتبرة فهو مجرى للاستصحاب.

قال عليه السلام: الشك إمَّا أن يلاحظ فيه الحالة السابقة أو لا، فالأول مجرى الاستصحاب، والثاني إمَّا أن يكون الشك فيه في التكليف أو لا،

والأول مجرى البراءة، والثاني إما أن يمكن الاحتياط فيه أو لا، فالأول مجرى قاعدة الاحتياط، والثاني مجرى قاعدة التخيير^(١).

٥. المنهجية الجديدة للأدلة الاجتهادية والفقهية

إن الشيخ قسّم الأدلة إلى دليل اجتهادي وإلى دليل فقاهي، وهذا التقسيم وإن كان موجوداً في كلمات المحقّق البهبهاني، ولكن التشريع والتبيين وبيان مورد كلّ بنحو واضح من ابتكارات الشيخ، فقد كان القدماء يستدلّون بالخبر الواحد منضماً إلى أصل البراءة أو أصالة الاحتياط مع أنّ مجرى الأصول بعمامير مجرى خبر الواحد، لذلك لم يكن له بدّ من بيان نسبة الأدلة الاجتهادية إلى الأصول العملية، وإنّ نسبتها إليها من قبيل الحكومة أو الورد. ومع وجود الدليل الحاكم أو الوارد لا تصل النوبة إلى المحكوم والمورود، فالأمارات كلّها أدلة اجتهادية من غير فرق بين قول اللغوي والإجماع المنقول والشهرة الفتوائية وخبر الواحد على القول بحجّيتها، وذلك لأنّ هذه الأدلة بنفسها طريق إلى الواقع مزيّلة للشك عند العقلاء والشارع أمضى ما بيد العقلاء بهذا الوصف، فبذلك صارت حجّة شرعية ورافعة للشك بحكم الشارع.

وأما الأصول فهي أدلة فقاهية يعمل بها في ظرف الشك ومع

فرض وجوده والغاية في العمل هو رفع التحير في مقام العمل.
 تسمّ إنَّ الشيخ ذكر أنَّ الأدلَّة الاجتهادية برمتها متقدِّمة على
 الأصول، ومعها لا تصل النوبة إلى الأصول العملية.
 مع أنَّ الشائع عند القدماء خلاف ذلك.

٦. ابتكاراته في الاستصحاب

إنَّ للشيخ الأنصاري ابتكارات في الاستصحاب يعرفها كلُّ من
 لم يكتاب الفرائد ولا يسعنا الإشارة إلى بنات أفكاره، غير أنَّ أحد
 ابتكاراته هو تبين الأصل السببي والمسببي، وأنَّ الأول مقدم على الثاني
 مع أنَّ القدماء يرون الأصلين متعارضين، وهو بذلك نقح كثيراً من
 المسائل الفقهية.

٧. ابتكاره في تمييز الأصل المثبت عن غيره

إنَّ للأصل المثبت جذوراً في كلمات الفقهاء ممَّن تقدَّم على الشيخ
 أو عاصره كما سيوافيك، ولكن تبين هذا الأصل وتشرجه بمنهجية علمية
 على نحو يميز المثبت من غيره هي من اختصاصات الشيخ، فترى فيها
 المباحث التالية:

١. تعريف الأصل المثبت.

٢. الدليل على عدم حجّية الأصل المثبت.

٣. في حجّية مثبتات الأمارات دون الأصول.

٤. استثناء بعض الأصول المثبتة إذا كانت الواسطة خفية.

٨. ابتكاره في الاستصحاب التعليقي

إنَّ أوَّل من تمسَّك بالاستصحاب التعليقي هو السيد الطباطبائي المعروف ببحر العلوم، وردَّ عليه تلميذه السيد علي صاحب الرياض في درسه الشريف، غير أنَّ الشيخ ذهب إلى جريانه وبيَّن المنهج الذي يُثبت حجية الاستصحاب التعليقي وتبعه تلميذه المحقق الخراساني.



٩. استصحاب حكم المخصص

اختلف الفقهاء في أنه إذا ورد التخصيص على عموم وعلم خروج فرد من تحته في فترة من الزمان لكن شك في خروجه بعد تلك الفترة، فهل المرجع عندئذ هو عموم العمام أو استصحاب حكم المخصص؟ فقد أبدع الشيخ هناك قاعدة باسم كون الزمان قيداً أو ظرفاً. وبذلك أيضاً أجاب عن شبهة المحقق التراقي المعروفة في باب استصحاب الأحكام الشرعية حيث زعم أنَّ استصحاب الحكم الشرعي مطلقاً يعارض دائماً مع استصحاب عدم الجعل.

١٠. ابتكاره في باب التعادل والترجيح

إنَّ باب التعادل والترجيح من أهم مباحث علم الأصول، إلَّا أنَّ معرفة الدليل الراجح وتقديمه على المرجوح أمر يحتاج إلى عقد ضوابط

للتقديم، فالشيخ هو أول من خاض عباب هذا البحث وخرج منه بصيد شهبي.



هل مصطلحا الحكومة والورود من ابتكارات الشيخ؟

قد اشتهر أن مصطلح الحكومة والورود من ابتكارات الشيخ الأنصاري، والفرق بينهما هو أن تقديم أحد الدليلين على الآخر إذا كان بلحاظ التفسير كأن يحدد دليل المحكوم سعة وضيقاً فهذه هي الحكومة، مثلاً: «من أفطر في شهر رمضان متعمداً فعليه كفارة صيام شهرين متتابعين» فالمتبادر من المتتابعين صيام ستين يوماً متتابعاً ولكن ورد هناك دليل آخر يوسع الموضوع ويفسر المتابع بصيام شهر ويوم، قال: إن كان على رجل صيام شهرين متتابعين، والمتابع أن يصوم شهراً ويصوم من الآخر شيئاً أو أياماً منه.^(١)

فالحكومة قائمة باللسان وهي لسان النظارة والتفسير سواء أكان التفسير جلياً أو غير جلي وسواء أكانت النتيجة هي التوسعة في جانبي عقد الوضع والحمل أو التضييق في كلا الجانبين، وقد أوضحنا حال الأقسام الأربعة في محاضراتنا.^(٢)

١. الوسائل: ٧، الباب ٣ من أبواب بقية الصوم الواجب، الحديث رقم ٩.

٢. لاحظ المحصول: ٤/ ٤٢١-٤٢٤ و إرشاد العنول: ٢/ ٣١٨-٣٢١.

هذه هي الحكومة وأما الورود فحاصله هو رفع أحد الدليلين موضوع الدليل الآخر حقيقة لكن بعناية من الشارع بحيث لولاه لما كان له هذا الشأن، فهذا كخبر الواحد بالنسبة إلى الأصول العقلية، فإن موضوع أصل البراءة العقلية هو عدم البيان، ويكفي في رفعه وجود خبر الثقة حيث إنه بيان من الشارع بعد ثبوت حجته، فمع وروده ينقلب عدم البيان إلى البيان لكن بعناية التشريع، أي لولا أن الشارع جعل خبر الثقة حجة لما انقلب عدم البيان إلى البيان، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصدرين المذكورين.^(١)

هذا هو المعروف وأنها من ابتكارات الشيخ ولكن السبر والتبع يدل على خلاف ذلك، فإن صاحب الجواهر استخدم كلمة الورود في كتاب القضاء، وقال: في مسألة ما لو ادعى داراً في يد إنسان وأقام بينه أنها كانت في يده أمس أو منذ شهر، قال: إن استصحب المملوك لا يصلح معارضاً لما تقضي به اليد الحالية^(٢) من المملك فعلاً، إذ هو وارد على الاستصحاب وقاطع له.^(٣)

كما أنه استخدم ذلك المصطلح في كتاب الحدود، فقال في مسألة: من أطلع على عورات قوم فلهن زجره، فلو أصرّ فرمونه بحصاة أو عود فجنى ذلك عليه كانت الجناية هدرًا ولو بادره

١. المحصول: ٤/ ٤١٩ - ١٤٢٠ إرشاد العقول: ٢/ ٣١٦ - ٣١٨.

٢. في المصدر: الحالة والصحيح ما أثبتناه.

٣. جواهر الكلام: ١٠/ ٤٥٥.

من غير زجر ضمن .

ثم أفاض الكلام فيما إذا جهل بأن الدافع قد تدرج حتى لا يضمنه، أو لا وادعى ذلك وأنكر المجني عليه وقال: هنا أصل شرعي مستفاد من الإطلاق المزبور وارد على أصالة الضمان فلا يحكم به حتى يعلم سبب الضمان.^(١)

نعم الظاهر أن الحكومة على النحو الذي شرحناه من ابتكاراته.

الأصل المثبت ليس من ابتكارات الشيخ

ربما يتصور أن القول بعدم حجية الأصل المثبت من ابتكارات الشيخ ولكنه خاطئ .

ويدل على ذلك أن صاحب الجواهر استخدم ذلك الاصطلاح في غير مورد في كتاب الجواهر منها في مسألة ما لو طلق زوجته فوطئت بالشبهة، قال المحقق: فإن أتت بولد لأقل من ستة أشهر من وطء الثاني وستة أشهر من وطء المطلق، ألحق بالمطلق، أما لو كان الثاني له أقل من ستة أشهر وللمطلق، أكثر من أقصى مدة الحمل، لم يلحق بأحدهما (لانتفائه عنهما شرعاً)، وإن احتمل أن يكون منهما استخراج بالقرعة.

قال في شرح الفرع الأخير: قال بالقرعة الشيخ في «المبسوط»، لأنها لكل أمر مشكل، وهذا منه بعد اشتراك الفراش بينهما وأن كان التكون

منهما، وتعارض الأصول في إلحاقه بكل منهما حتى أصالة تأخر الحادث التي هي في المقام لو قلنا بها، كانت من الأصول المثبتة.^(١)

وقال في مسألة: لو ثبت العن ثم ادعى الوطأ، فالتقول قوله مع يمينه - إلى أن قال: - واستصحاب العجز الثابت سابقاً لا يصلح لإثبات العن ضرورة عدم كون ذلك مما يثبت بالاستصحاب، بل هو بالنسبة إليه من الأصول المثبتة التي ليست بحجة.^(٢)



أساتذة الشيخ

مركز تحقيقات كبير علوم ديني

قد حضر الشيخ بحث غير واحد من الأعظم، غير أنا نقتصر على ذكر أكابر أساتذته الذين كان لهم دور كبير في إعداد شخصيته، وهم أربعة:

١. السيد محمد المجاهد (١١٨١-١٢٤٢هـ)

هو السيد محمد بن علي بن أبي المعالي الطباطبائي الحسني نجل صاحب الرياض، ولد في كربلاء وتلمذ على والده صاحب الرياض والسيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي، وجد في دراسة علمي

١. الجواهر: ٢٩/٢٥٩.

٢. الجواهر: ٣٠/٣٥٤ ولاحظ أيضاً ٣٢/١٥٦ و ٢٧٠ ولاحظ ٣١/١٣٤ و ٣٦٤.

الفقه والأصول حتى برع فيهما، أفتى بالجهاد ضد الروس، وفي ظل هذه الفتوى انتصرت إيران على القوات الروسية في بداية الأمر.

٢. شريف العلماء المازندراني (م ١٢٣٦ هـ)

هو محمد شريف بن حسن علي المازندراني الشهير بشريف العلماء، كان فقيهاً إمامياً مجتهداً من كبار الأصوليين ومشاهير المدرسين له يد طويلة في علم الجدل.

ولد في الحائر بكربلاء، وتعلم على السيد علي الطباطبائي صاحب الرياض ولازمه مدة تسع سنوات، ثم استقل بالتدريس ومهر فيه واتجهت إليه الأنظار ونهات عليه أهل العلم لغزارة علمه وحسن تقريره حتى بلغ عدد من يحضر درسه ألف شخص أو أكثر وقد ذكر الشيخ الأنصاري رأي أستاذه عند البحث عن دور الاجازة في البيع الفضولي.

٣. الشيخ موسى كاشف الغطاء (١١٨٠ - ١٢٣١ هـ)

هو موسى بن جعفر بن خضر بن محمد يحيى المالكي الجناحي الأصل، أحد مراجع الدين للطائفة الإمامية. كان فقيهاً متبحراً أصولياً من أكابر أساتذة الفقه. ولد في النجف الأشرف، حضر درس والده، جعفر صاحب «كشف الغطاء» ولازمه

وتخرج به ونبغ ونال درجة الاجتهاد واستقل بالتفرفس فى حفاة ثم انتهت إلفه المرجفة بعد والده وعلا صففه.

٤. المولى أأمد النراقف (١١٨٥-١٢٤٥هـ)

هو أأمد بن محمد مهفف بن أبف ذر النراقف، الكاشافف أأفد أألاء الإمامفة، كان ففها مجتهداً، أصولياً، شاعراً، مصنفأ، جامعا لأأفر العلوم.

ولف فى نراق ودرس المقدمات والسطوح على والده المولى مهفف النراقف، وأرأفل إلى العراق لغرض زفارة العتبات المقدسة ومواصلة الدراسة، فأضر فى النأفف على: السفف محمد مهفف بأفر العلوم الطبأفائف والشفف أعفر كأشف الغطاء، وعاف إلى كأشان عام ١٢٠٩هـ بعد وفاة والده وأصرف أفل اهتمامه لإدارة أوزة كأشان.

أألف له العففف من طلبة العلم منهم الففقه الكأفر مرأفى الأنصارف وله منه إأازة.

هذه لأحة أأاطفة إلى أسائفة الشفف الأنصارف، وإلفك أسماء كأبار ألامأفه.

ألامأة الشفف الأنصارف

كان للشفف الأنصارف ألامفف كأفرون أاهر عففهم الأأأافاة، أشهرهم:

١. الميرزا محمد حسن الشيرازي (١٢٣٠-١٣١٢هـ)

هو محمد حسن بن محمود بن إسماعيل بن فتح الله بن عابد الحسيني الشيرازي المعروف بالمجدّد وبالميرزا الشيرازي. كان المرجع الأعلى للطائفة الإمامية في عصره، فقيهاً، أصولياً، جامعاً للفنون من مشاهير الرجال ولد في شيراز وشرع بدراسة العلوم العربية والفقه والأصول، ثمّ توجه إلى إصفهان سنة ١٢٤٨هـ فقرأ على: محمد تقي بن محمد رحيم الإيروانكي، والسيد حسن بن علي البید آبادي، ومحمد إبراهيم الكلّباسي. ثمّ ارتحل إلى العراق واختلف إلى حلقات درس الأعلام: محمد حسن صاحب الجواهر، والشيخ حسن بن جعفر كاشف الغطاء، ولازم بحث مرجع عصره الشيخ مرتضى الأنصاري وانتفع به كثيراً. ونبع في حياة أستاذه الأنصاري وحظي باحترامه وتقديره وصار يشار إليه بين تلاميذه.

ولما توفي الأنصاري أجمع زملاؤه على تقديمه للدرس والصلاة وأرشدوا الناس إلى الرجوع إليه في التقليد حتّى نال الزعامة الكبرى وانتهت إليه رئاسة أكثر الإمامية في عصره.

ومن طريف ما نقل عنه هو أنّه بعد وفاة صاحب الجواهر أراد العودة إلى شيراز، فسأله أصدقاؤه عن سبب عدم بقائه في النجف؟ فقال: لا يوجد من أستفيد منه. فسألونه، هل حضرت درس الشيخ؟

فيقول: نعم، لا توجد فيه مطالب مهمة، يقولون له: الشيخ أكبر من هذه الكلمات، ثم هبّاوا مجلساً دعوا إليه الشيخ والميرزا ليتعرف الميرزا على الشيخ بصورة أحسن وعن كُتب.

طرح الميرزا في هذا المجلس مسألة، أجاب الشيخ عن هذه المسألة وسلم الجواب له الميرزا، فأورد الشيخ إشكالاً على الجواب، وشرح هذا الإشكال بطريقة سلمه الميرزا، وبعدها أجاب الشيخ بنفسه على هذا الإشكال، ولا زال الشيخ يكرر إشكالاً ويحجب عنه والميرزا يسلم له الإشكال والجواب، حتى قيل أنه استشكل وأجاب سبع أو ثمان مرات بطريقة سببت إعجاب الميرزا بالشيخ في ذلك المجلس على وجه صرفه عن العودة إلى شيراز، وبقي في النجف إلى آخر حياته ملازماً لدرس الشيخ.

٢. الميرزا حبيب الله الرشتي (١٢٣٤-١٣١٢ هـ)

حبيب الله بن محمد علي خان بن إسماعيل الجيلاني الرشتي، كان من أكابر الفقهاء والأصوليين المحققين ومن أشهر المدرسين في عصره. درس المقدمات في مسقط رأسه رشت، ثم توجه إلى قزوین وأخذ عن: علي بن گل محمد القارپوز ابادي القزويني، وعبد الكريم الإيرواني القزويني، وأجيز بالاجتهاد وهو ابن ٢٥ سنة، وارتحل إلى النجف الأشرف فحضر في الفقه على محمد حسن صاحب الجواهر، ثم

انضم إلى حلقة درس مرتضى الأنصاري ولم يتخلف عنها طيلة حياة أستاذه، وقد كتب تقارير بحته فقهاً وأصولاً في عدة مجلدات.

ومن طريف ما نقل عنه مع أستاذه الأنصاري أنه كان يحضر بحث صاحب الجواهر فعرضت له شبهة فعرضها على الأستاذ ولم يسمع جواباً، فتكلم فيها بعض التلاميذ، ثم قيل له إن اذهب إلى مجلس الشيخ مرتضى الأنصاري، فقصده وعرضها عليه فأجابه الشيخ وأبان له الفرق بين الحكومة والورود، فبهت واستغرب الاصطلاح، فقال له الشيخ مرتضى: إن إشكالك لا يرتفع إلا بالحضور عندي مدة أقلها شهران، وكان المترجم إذ ذاك صارماً على الرجوع فأعرض عنه، وحضر بحث الشيخ فرآه يحرراً لا يُبلغ قمره، ولا يُنال دركه، فعزم على الإقامة والاستفادة، فبقي يشتغل في غاية الجد والاجتهاد في الفقه والأصول ملازماً له مقتبساً من أنواره ومفتقراً من بحار علومه ومما يؤثر عنه قوله: ما فاتني بحث من أبحاث الشيخ منذ حضرت بحثه إلى يوم تشييعه مع أنني كنت مستغنياً عن الحضور قبل وفاته بسبع سنين.^(١)

٣. الميرزا محمد حسن الاشتياني (١٢٤٨-١٣١٩هـ)

هو محمد حسن بن جعفر بن محمد الاشتياني الطهراني، كان فقيهاً إمامياً، أصولياً، من وجوه العلماء المحققين في طهران.

وُلد في قصبة آشتيان (بين قم وسلطان آباد).
 وانتقل في صباه إلى بروجرد فمكث فيها أربع سنوات حيث
 أكمل دراسة المقدمات هناك، وارتحل إلى النجف الأشرف لاستكمال
 دراسته، فحضر على فقيه عصره مرتضى الأنصاري واختص به وصار
 مقرر بحثه وصاحبه إلى بلاده فسكن طهران وتفرغ فيها للتدريس
 والتأليف، وهو أول من نشر تحقيقات أستاذه الأنصاري في إيران،
 فتوافد عليه طلبه العلم من كل ناحية .
 وكان عضداً للسيد الميرزا الشيرازي في مسألة تحريم
 التباكو.

٤ . السيد حسين الكوهكمري (المتوفى ١٢٩٩ هـ)

هو السيد حسين بن محمد بن حسن بن حيدر بن شمس الدين
 الحسيني الكوهكمري، كان فقيهاً إمامياً مجتهداً متبحراً في أصول الفقه،
 محققاً فيه، مدرساً قديراً.

وُلد في كوه كمر (من قرى مرند)، وقد انتهى إليه وإلى ميرزا
 حبيب الله الرشتي أمر التدريس في النجف بعد وفاة الشيخ الأنصاري
 وتخرج عليه الكثير من العلماء ذكرت أسماؤهم في طبقات الفقهاء، ومن
 عجيب ما نقل عنه:

إنّه كان مستقلاً بالتدريس فحضر يوماً قبل مجيء تلامذته إلى

محلّ الدرس ، فرأى في زاوية المسجد شيخاً يدرس عدداً من الطلبة ، فأصغى لكلامه فأحس أن هذا الشيخ يدرس بنحو أفضل منه ، فرغب عداً أن يحضر درسه ، فعندئذ ازداد اعتقاده في حق الشيخ ، فلمّا حضر تلامذته لالقاء المحاضرة دعاهم إلى المشاركة في درس الشيخ الأنصاري باعتباره أفضل منه قائلاً : إنّ هذا الشيخ الجالس مع بعض الطلبة في ناحية المجلس أفضل مني للتدريس وأصلح ، وأنا أيضاً استفيد منه ، فلنذهب جميعاً إلى درسه ، انظر إلى سلامة النفس وروح الإيثار؟



٥ . الشيخ حسن نجم آبادي الطهراني (المتوفى ١٢٨٤ هـ)

هو حسن بن إبراهيم بن باقر النجم آبادي الطهراني أحد أعلام مجتهدي الإمامية.

كان والده من أجلاء علماء طهران، تتلمذ في النجف الأشرف على الشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري واختصّ به وصار من أجلّ تلامذته.

كان المرحوم النجم آبادي من جملة ثلاثة اشخاص قيل إنّهم قالوا في حقهم: إنني ألقى الدرس من أجلهم. وبعد وفاة الشيخ اجتمع رأي العلماء على رئاسته ولكن شدة نقواه وورعه امتنع عن تقبل ذلك.

٦. الميرزا حسين الخليلي (١٢٣٠-١٣٢٦هـ)

هو الميرزا حسين بن خليل بن علي بن إبراهيم الخليلي الطهراني، كان فقيهاً متبحراً مدرساً من أكابر مراجع التقليد. حضر بحوث الفقهاء الأعلام: محمد حسن صاحب الجواهر، ومرتضى الأنصاري، وبرع في الفقه وصار من المتقدمين فيه المحيطين بفروعه العارفين بأقوال الفقهاء.

قد تعرفت من كلام سيّد الأعيان على أنّ الشيخ كان يلقي دروسه في الجامع الهندي في النجف الأشرف ويغص فضائه بما ينيف على الأربعمئة من العلماء والطلاب، فقد تخرج عليه كثير من الفقهاء والمجتهدين الذين تسّموا منصة الزعامة العلمية والرئاسة الدينية بعد رحلة الشيخ منهم من ذكرنا ومنهم من لم نذكر، وهم الأكثر نظراً:

١. الشيخ أبي القاسم مقرر دروس الشيخ في مباحث الألفاظ (المتوفى ١٢٩٢هـ).

٢. الشيخ موسى التبريزي مؤلف «أوثق الوسائل» (المتوفى ١٣٠٧هـ).

٣. الشيخ علي النهاوندي (المتوفى ١٣١٧هـ).

٤. الشيخ محمد الشرياني (المتوفى ١٣٢٢ هـ).
٥. الشيخ حسن المامقاني (المتوفى ١٣٢٣ هـ).
٦. الشيخ علي العلياري (المتوفى ١٣٢٧ هـ).
٧. الشيخ محمد كاظم الخراساني (المتوفى ١٣٢٩ هـ)، إلى غير ذلك من علماء أجيالهم.

وقد أتى صديقنا الحجة الشيخ مرتضى الأنصاري (دام مجده) في كتابه بأسماء كثير من تلامذة الشيخ مع تراجمهم فبلغ (٣١٥) تلميذاً بارعاً^(١). وقد أغنانا كتابه عن الإيعاز إلى أسمائهم فضلاً عن الإشارة بفضائلهم.

مركز تحقيق مكتبة نور محمد بسدي

نفسياته وسجاياه

نذكر في هذا الفصل شيء قليلاً من نفسيات شيخنا الأنصاري
وسجاياه فإن قيمة المرء بما يحمل من صفات وخصال.



١. تورعه في قبول المرجعية

تقدّم أنّ صاحب الجواهر عندما أحسّ بقرب أجله أحضر
شيخنا المرتضى، والبيت مكتظّ بالعلماء والفضلاء، فقال: هذا
مرجعكم، والآن طاب لي الموت ولكن الشيخ لم يقتنع بذلك لأنّه كان
يرى وجوب تقليد الأهل، وكان سعيد العلماء زميله في الدراسة أعلم
منه يوم ذاك وقد كان انتقل إلى مازندران فكتب إليه الشيخ رسالة يخبره
فيها بأنّه عُيّن مرجعاً ومفتياً للشيعه ولكنك كنت أعلم منّي فارجو أن
تقبل الزعامة وترتحل إلى النجف الأشرف.

قلما وافاه الكتاب كتب في جوابه ما هذا مضمونه:

أجل الأمر كما تفضلتم وذكرتم، وكنت أعلم وأدق حينما كنت
هناك مشغولاً بالدراسة.

لكن هناك شيء يترك عني وهو استمرارك في الاشتغال بالبحث

والتدريس والتأليف وتركسي البحوث والدروس لاشتغالي بمهام الأمور من حبل القضايا وفصلها فأنت أعلم مني، فالواجب على الطائفة تقليدك وتسلمك أمور الزعامة والمرجعية.

٢. تواضعه

نقل بعض الأجلاء عن العلامة السيد محمد علي السبط - الذي كان من أسباط الشيخ - أنَّ المترجم له قد ترك التدريس برهة من الزمن ولم يُعلم سبب ذلك، وكلَّ ما أصرَّ عليه تلاميذه أن يعدل عن عزمه يأبى ذلك، ولكنه ﷺ أصرَّ سبب التعطيل لبعض أصحابه المقربين وقال: وصلتني رسالة تحمل في طياتها نقداً لطائفة من آرائي ونظريات، وفهمت أنَّ هذا النقد غير وارد، فصار ذلك سبباً لظهور فكرة في ذهني، وهي ربما يمكن أن يكون ما أذكره من النقود والنقوض على كلام الآخرين من هذا القبيل، ولذلك انصرفت عن التدريس لثلاً أبخس حقهم.

ولما ذكر الشيخ السبب من وراء تعطيله الدرس لبعض المقربين.

ف قيل له: ثمة فارق بين نقد ذلك العالم لرسائلك وكتبك، ونقدك لكلام المتقدمين، فإنَّ الناقد المذكور اكتفى بقراءة كتبك ورسائلك دون أن يحضر أبحاثك أو يذاكرها مع عالم آخر، في حين أن نقدك لأراء الفقهاء المتقدمين بمراى ومسمع جم غفير من المجتهدين الذين يدافعون عن أنظار المتقدمين بحماس وفي النهاية يقتنعون بنقدك ونظرك،

فشتان بين النقيدين.

ولما سمع الشيخ ذلك عدل عن رأيه وشرع بالدرس.

٣. دفاعه عن كرامة العلماء

إن العلامة الحاج ملا علي الكني كان من أكابر علماء طهران في عصر الشيخ الأنصاري، وكان ذاباً عن حريم الشريعة ولا يرضى منها إلا بإجرائها بحلوها ومزها، ولذلك كان يناضل ضد الشاء وأعوانه وكان الأمراء يزورونه حيناً بعد حين، وقد زار الشيخ الأنصاري في بعض الأيام أحد الأمراء ورأى دار الشيخ وزهده وأنه كان يعيش كأحد الطلبة، فقال للشيخ: «شتان ما بينك وبين الحاج ملا علي الكني فإنه يعيش مرفهاً دونك».

فلما سمع الشيخ هذه الكلمة قال: أستغفر الله، والحق معه، إذ فرق بيني وبينه، فإني أعاشر الطلبة الفقراء فلا بد أن يكون عيشي كعيشهم، وأما الشيخ الكني فهو يعاشر السلاطين والأعيان والأشراف فلا بد أن تكون داره مناسبة لحال من يعاشره.

وقد ذكر المولى باقر التستري في تذكروته أن الشيخ توفي عن بنتين، وقومت تركته بأربعة عشر توماناً قسمت بينهما نصفين.

٤ . سلوكه وعرفانه

كان الشيخ الأنصاري فقيهاً بارعاً وأصولياً مدققاً، مدرّساً كبيراً، مربّياً لجيل كبير من التلاميذ، ومديراً للحوزة، ومجيباً للأسئلة الفقهية التي ترد إليه يومذاك من كافة أنحاء البلاد الإسلامية، وكلّ ذلك لم يمنعه من تركية النفس عن طريق التلمذ في الأخلاق والعرفان على السيد علي الشوشتری الذي كان من أحفاد السيد نعمة الله المحدث الجزائري.

إنّ السيد بعد ما أكمل دراسته في النجف ارتحل إلى تيسر وانصرف إلى التدريس وقضاء حاجات الناس وتقلّد القضاء فيها.

في إحدى الليالي طرق باب بيته شخص يدعى ملاقلي جولاء وقال له:

هذا الطريق الذي تسلكه يوصلك إلى جهنم. يتعجب السيد ويقول في نفسه: كيف يكون الطريق الذي يرشد الناس ويعلمهم ويقضي بينهم بالحق موصلاً إلى جهنم؟ بعد عدّة ليالي تكرر الحادث إذ طرق الباب نفس الشخص وقال أيضاً: ألم أقل هذا الطريق يوصلك إلى جهنم؟ وقال: إنّ الدعوى الفلانية التي قدّمت إليك بمجوعة، والملك المتنازع عليه وقف وسند وقفه في المكان الفلاني، فذهب السيد علي في اليوم التالي إلى المكان الذي ذكره ملاقلي وهدم جزءاً من الجدار وأخرج سند الوقف.

وبعدها يقول ملاقلي للسيد: اذهب إلى النجف واسكن هناك.
فذهب السيد إلى النجف وبقي إلى آخر حياته وكسان يحضر درس
الشيخ.

كان الشيخ والسيد صديقين حميمين لا يفترقان ولم يعلم بين
حفظه الناس أيهما كان أكثر عرفاناً ومقدماً على صاحبه حتى توفي
الشيخ، فعند تشييع جنازته كان السيد متألماً كثيراً ولم يقر له قرار
وقال: بكائي على تلك الأشياء التي كسنت في صدر الشيخ ولم يجد
أحداً يودعها.

حكى العلامة الحجة السيد موسى الشيرازي - دام ظله - عن
المرحوم ملا علي الهدائي رحمته الله وهو يحكي بواسطة عن ملا حسين قلي
الهدائي الذي كان أحد تلامذة السيد علي التستري، القصة التالية:

وقفت على أن الشيخ يذهب في كل أسبوع إلى بيت ويمكث
فيها ساعة ثم يخرج، فتتبعته فرأيت أنه يذهب إلى بيت السيد علي
التستري، ثم إني دققت الباب واستجرت لأمر الخيرة، فأذن لي فرأيت
أن السيد يعظ والشيخ يسمع، فلما أنهى وعظه قام الشيخ من المجلس
وشايعه السيد علي باحترام بالغ.

ثم إني استجرت من السيد أن أشارك في هذا الدرس الذي ملقي
في كل أسبوع ساعة، فقال السيد: إن الشيخ الأنصاري أحد الزعماء ولا
يسعه الوقت للحضور باستمراره وبإمكانك أن تأتي في أي وقت شئت.

ثم يقول : ذهبت يوماً إلى بيت السيد علي فرأيت جماعة من التلاميذ التفتوا حوله وهو يعظهم ويرشدهم إلى منازل الكمال وكسب الفضائل.

٥. البعد السياسي والاجتماعي لشخصيته

قد وردت في بعض الروايات أنَّ المؤمن ينظر بنور الله والشيخ وإن لم يدرس العلوم السياسية الرائجة ولكنه كان يعرف ما هو الصالح لحال الإسلام والمسلمين عن غيره، وتشهد على ذلك الحكاية التالية:

قد وقف أحد الأثرياء الشيعة ضيعة لتُصرف عوائدها على طلبة النجف الأشرف، ولما تسلم الشيخ منصة المرجعية، كانت العوائد ترسل إليه وقد قبلها الشيخ سنة أو سنتين غافلاً عن حقيقة الأمر، فلما وقف على أنَّ الضيعة تقع في الهند وتخضع لنفوذ الانجليز امتنع عن قبول عوائدها صيانة لكرامة الحوزة العلمية من أن تتهم بالارتزاق من جانب أعداء الدين.

٦. نواذر الشيخ

كان الشيخ الأعظم فقيهاً بارعاً، وإنساناً زاهداً، ومفكراً كبيراً، ومع ذلك كانت له فكاهيات عليها الطابع العلمي.

نقل أنَّ الفاضل الدربندي أحد المراجع في عصر الشيخ التقى به


في الحرم الشريف للإمام أمير المؤمنين فقال الفاضل مخاطباً الشيخ
بصورة المزاح: بالله أنا أعلم منك.

فأجابه الشيخ بأنّ الحلف من وظائف المنكر لا من وظائف
المدعي! وسكت.

ولو حاول ظريف أن يشق تلك الفكاهة تكون معناها: إنّ
الحالف لا يعرف أبسط القواعد الفقهية حيث إنّ رسول الله ﷺ قال:
«البينة للمدعي واليمين على من أنكر»، وأنت أيها الشيخ الفاضل مدّع
ولست بمنكر فكيف تحلف فعليك إقامة البينة لا الحلف.

وأخيراً دهوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات

٥	مقدمة المؤلف
٧	الشيخ الأنصاري رائد النهضة العلمية الحديثة
١٠	الاجتهاد في عصر الباقرين 
١٣	الاجتهاد رمز نخلود الدين
١٥	المراحل التي مرّ بها الفقه الشيعي
١٥	الافتاء بنقل الروايات مع أسانيدها
١٦	تجريد المتن عن الأسانيد
١٧	التفريع واستخراج الفروع من الأصول

الأخباريّة منهج مبتدع

٢٥	حنّ قدح ليس منها
٢٦	نقد كتاب «الفكر السلفي عند الشيعة»
	الأخباريّة في القرون الثلاثة الأولى غير الأخباريّة
٢٨	المصطلحة

- الأسس التي يبنى عليها الأخبارية..... ٣٣
١. عدم حجّة ظواهر الكتاب ونقده..... ٣٥
٢. ادّعاء قطعية أحاديث الكتب الأربعة ونقده..... ٣٩
٣. إنكار حجّة العقل في مجال الاستنباط ونقده..... ٤٠
- ازدهار المسلك الأخباري بعد الأمين..... ٤٤

حياة الشيخ الأنصاري

وشخصيته

- هجرة الشيخ إلى العراق عام ١٢٤٠ هـ..... ٥٠
- رحلته العلمية وتجوّاله في البلدان..... ٥٢
- صاحب الجواهر ينتخب الشيخ للزعامة الدينية..... ٥٤
- كلمات الاطراء وجل الشناء في حقّه..... ٥٦
- تأليفه وتصانيفه..... ٦١

ابتكارات الشيخ

في حقلّي الفقه والأصول

١. أوّل من عقد بحثاً أصولياً للقطع..... ٦٧
٢. الشك في الحجّة مساوق لعدم الحجّة..... ٦٨

٦٩	٣. تقسيم حالات المكلف إلى أقسام ثلاثة
٦٩	٤. تبين مجاري الأصول العملية
٧٠	٥. المنهجية الجديدة للأدلة الاجتهادية والفقهية
٧١	٦. ابتكاراته في الاستصحاب
٧١	٧. ابتكاره في تمييز الأصل المثبت عن غيره
٧٢	٨. ابتكاره في الاستصحاب التعليقي
٧٢	٩. استصحاب حكم المخصص
٧٢	١٠. ابتكاره في باب التعادل والترجيح
٧٣	هل مصطلحا الحكومة والورود من ابتكارات الشيخ
٧٥	الأصل المثبت ليس من ابتكارات الشيخ
٧٦	أساتذة الشيخ
٧٦	١. السيد محمد المجاهد
٧٧	٢. شريف العلماء المازندراني
٧٧	٣. الشيخ موسى كاشف الغطاء
٧٨	٤. المولى أحمد النراقي
٧٨	تلامذة الشيخ
٧٩	١. الميرزا محمد حسن الشيرازي
٨٠	٢. الميرزا حبيب الله الرشتي

٣. الميرزا محمد حسن الأشتياني ٨١
٤. السيد حسين الكوهكمري ٨٢
٥. الشيخ حسن نجم آبادي الطهراني ٨٣
٦. الميرزا حسين الخليلي ٨٤

نفسياته وسجاياه

١. تورعه عن التصدي للمرجعية ٨٦
٢. تواضعه ٨٧
٣. دفاعه عن كرامة العلماء ٨٨
٤. سلوكه وعرفانه ٨٩
٥. البعد السياسي والاجتماعي لشخصيته ٩١
- فهرس المحتويات ٩٣

الحمد لله رب العالمين